1

أ.د. فؤاد البنا

جواهر التدبر

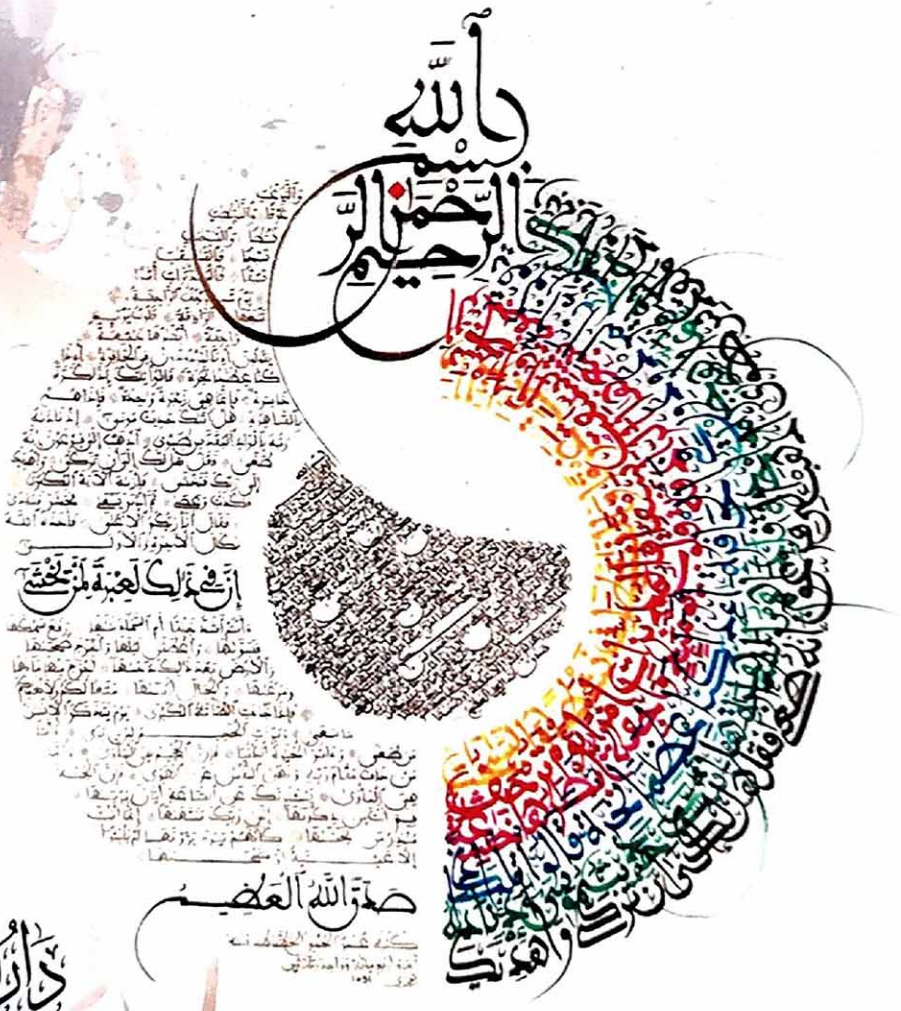

دار البشير

جواهر التدبر

الطبعة الأولى
1444 هـ
2023 م

اسم الكتاب: جواهر التدبر
التأليف: فؤاد عبدالرحمن محمد البنا
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 272 صفحة
عدد الملازم: 17.ملازم
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2022 / 4997
الترقيم الدولي: 5 - 966 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

جواهر التدبر

تأليف
فؤاد عبدالرحمن محمد البنا

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب المُبين، وجمع فيه أبعاد الكتب السماوية السابقة وجعله مهيمنا عليها ومسكاً لها إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على من تلقّى كتاب ربه بعقله وقلبه وجسّده في حياته بجوانحه وجوارحه، وحذّر أتباعه من هجر القرآن وحثَّهم على تعلّمه وتعليمه فقال: «خيرُكم من تعلّم القرآن وعلّمه».

أما بعد:

فلقد صاغ الله القرآن الكريم بطريقة تزخر بالإعجاز وتصنع الإبهار، ولا تزال ترسم في وجوه قرائه الدهشة وتزرع في قلوبهم الذهول، حيث تجمع صياغته بين استيعاب تغيّر الأزمان والأماكن واختلاف الأقوام والأجيال، وبين الثبات والخلود إلى قيام الساعة، ثم تعهد بحفظه بنفسه بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وطالب المسلمين في كل عصر بأن يُجسدوا خلوده ويُبرزوا قدرته على استيعاب التطورات، من خلال مداومة النظر إليه برؤيته المقاصدية وروح عصرهم وكأنه يتنزل عليهم من جديد، وطالبهم بتدبر حروفه وكلماته وآياته ومقاطعه وسوره وأجزائه، للبحث عن أسراره الكامنة في فصاحته المُبهرة، والتنقيب عن كنوزه الثاوية في خبايا صياغاته المعجزة، فقد جعلها الله مثل السحاب في قدرتها على الانسكاب المعرفي والانهمار الهداياتي، بحيث تجيب في كل عصر عن الأسئلة المثارة وتحل المشاكل الناشبة، وتُخرج المستضيئين بهداياتها من كل حيرة وتنقذهم من كل مأزق في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، مُمتلكة القدرة على انتشال جميع البشر من التخبط

في ظلمات التخلف إلى العيش تحت أنوار الهداية، وعلى رفع سائر الناس من غياهب التردي في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] إلى التحليق في فراقد التكريم الإلهي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وصولاً إلى صناعة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومع كَرِّ الليالي الموغلة في الجهل وفَرِّ الأيام العامرة بالعلم، فقد هبط المسلمون بطريقة متدرجة من علياء الدين المطلق نحو قيعان التدين النسبي، حتى تركّز اهتمام أغلب المتدينين على دراسة متون العلماء وشروحها، وعندما انصبّت اهتمامات التدين التقليدي على كتابة العلماء لـ(هوامش) الكتب السابقة وقراءة العامة لها؛ انزلقت الأمة في الواقع الحياتي نحو (هوامش) الفاعلية وصناعة الحياة!

وعندما انبعثت الصحوة الإسلامية في العقود الماضية، بدأت رحلة الأمة نحو العودة من جديد إلى المتن الحضاري المفقود، وذلك من خلال عودة أعداد مقدرة من المسلمين إلى العيش في أكناف القرآن الكريم، غير أن أغلب هؤلاء ما زالوا يركزون اهتمامهم على حفظ نصوص القرآن من دون اهتمام بالتدبر الذي هو لبّ التفاعل الخلاق مع القرآن، ولأهمية التدبر في فهم مقاصد القرآن واستخراج كنوز هداياته، فقد علل الله تنزيل كتابه الكريم بالتدبر والتذكر، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وتشير لفظة ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ إلى إحكام الحكيم الحميد في صياغته بطريقة تختزل كل ما يحتاجه البشر من معاني في مباني محدودة، وتكتنز كل ما يجلب للناس المنافع ويدفع عنهم المضار في المعاش والمعاد في كتاب تناهت كلماته لكن هداياته غير متناهية.

وإعمالاً لفريضة التدبر التي تعاني من ضعف الحضور في حياة معظم المسلمين المعاصرين، فقد حاولت أن أقدم في هذا الكتاب بجزئيه (حتى الآن) نموذجا تطبيقيا في التدبر لبعض آيات القرآن الكريم، في محاولة لتنزيل هدايات الرحمن المثالية على واقعنا الذي تتخبطه شياطين الكفر والزندقة والفسق والنفاق، حيث تضافرت جهودها في محاولة جديدة وجادة لمسخ هوية الأمة ودفعها نحو هاوية الضلال الكبير.

ويمكن عَدّ هذا الكتاب محاولة، أرجو أن تكون نافعة، للتغلب على أصفاد العقول وأقفال القلوب التي تحول دون التدبر المنشود، والمشار إليها في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، ورغم الحجم الصغير للكتاب إلا أنه يضم مئات الجواهر النفيسة التي تم بفضل الله تعالى استنباطها من أصداف الآيات، راجين أن تُسهم في قتل فيروسات الغثائية الشائعة، وأن تكون ترياقا لإذكاء الفاعلية الضعيفة، وإكسيرا لمعالجة أسقام المجتمعات الإسلامية في مضمار عمارة الأرض وصناعة الحياة.

إن هذا الكتاب ليس تفسيراً بالمعنى التقليدي المعروف، لكني أزعم أنه تأملات عميقة وخلاصات دقيقة متغلغلة في ثنايا القرآن ومن دون ترتيب، حيث كنت من خلال قراءتي للقرآن أسجل ما انطبع في ذهني من معاني جديدة بصورة مختصرة وغير مفصلة، ثم أقوم بعدها بجمع بضع فقرات متجاورة في المعاني وأضعها تحت عنوان واحد، وهكذا يمضي الكتاب ليضم قرابة مائة عنوان، وتحت كل عنوان بضع عناوين فرعية.

ويمكن القول بأن هذا الكتاب ضرب جديد من ضروب التفاعل التدبري مع القرآن، يجمع في منهجيته بين أساليب التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي، ولكن بصياغة أدبية مختصرة، وتتمحور عناوينه حول قضايا ذات

حضور عريض في الواقع، لتتوزع بين العقيدة والفكر، بين الشريعة والفقه، بين القيم والأخلاق، بين السنن والنواميس، بين الظواهر والقوانين الاجتماعية، بين المكارم والخصائص العامة، بين المشاعر والأحاسيس الوجدانية، بين الأذواق والآداب العامة، بين الدقائق والرقائق الروحية، مع التركيز بشكل خاص على إبراز القيم المسؤولة عن العروج الحضاري.

ويعتمد على تحليل الآيات واستنطاق الكلمات، لاستمطار معاني جديدة يحتاجها الواقع المصاب بجدب الأفكار وتصحّر الفاعلية، من دون الخروج على قواعد اللغة العربية وأساليبها المتنوعة أو المقاصد العامة لهذا الدين العظيم.

أسأل الله أن يكون قد حالفني التوفيق الإلهي ورافقني المدد الرباني، وأن يكتب البركة لهذه الحروف والمشاعر، وأن يمنح عمق التأثير لهذه الجواهر وينفع بها أكبر عدد من المسلمين، وأدعوه تعالى أن ينفعنا جميعا بما نقرأ وما نكتب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فؤاد البنا

مدينة تعز

٢٥ شعبان ١٤٤٣هـ

٢٨ مارس ٢٠٢٢م

أكَاسيرُ الأمَل

خوارقُ الأمل:

اليأس مرضٌ خطير إذا أصيبت به نفسٌ أقفر العقل وأجدبت الروح، ولا نجاة منه إلا باحتساء شراب الأمل وارتشاف شَهْد الرجاء، فهو الإكسير الواقي من كل يأس وقنوط والشافي من كل إحباط وسلبية؛ ذلك أنه من خوارق الإيمان بالله المقتدر على كل شيء ومن يملك أن يقول للشيئ كن فيكون.

ولقد أخبرنا القرآن بأن العهد قد طال بيعقوب في فراقه لفلذة كبده يوسف، وبعد سنوات طويلة، تَدرّج فيها يوسف من عبد بيع بثمن بخس إلى عزيز تهفو إليه زعامة مصر، يفقد يعقوب ابنه الآخر، لكنه لم ييأس بل ازداد ثقة بأن اشتداد ظلام الأزمة علامة على انبلاج شمس الفرج، حيث أيقن بأن الفرج قريب، مما جعله يطلب من أبنائه أن يتحسسوا أخبار يوسف وأخيه.

لقد كان الأمل هو الطاقة الخفية التي جعلت يعقوب يشمّ رائحة يوسف من مسافات بعيدة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

جسْرُ الأمل:

إن أمل المؤمنين هو الجسر الذي يقصر المسافة بين جبروت الطغاة وبين مصارعهم، وعلى سبيل المثال لم يكن الفاصل الزمني كبيراً بين جبروت فرعون الذي غضب ذات يوم من موسى ومن معه فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، وبين غضب جبار السماوات والأرض عليه، حينما أمر البحر أن يبتلعه فقال وهو يعالج غمرات الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ !

فهل كانت الجماهير المُغفّلة التي سمعت فرعون يتبجّح قائلاً: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، هل كانت تتخيّل أن هذا الفرعون ستبتلعه مياه البحر وتعلوه مياه الأنهار بعد سنوات قليلة من ادعاء التفرد بالألوهية والافتخار بأن هذه الأنهار تجري من تحته؟ هل كانت تتخيل أن الذي (تَلفّظ) بألفاظ الربوبية والقهر سيتولى البحر (لفظه) حتى يصير لمن خلفه آية؟!

طائرُ النصر:

إن مِنّة الله على الذين آمنوا لا تأتي إلا بعد استضعافهم من قبل الطغاة المتجبرين، وإن لتمكين الله لهم مأربين:

الأول: تجسيد وعد الله لأهل الصلاح الشامل بوراثة الأرض.

الآخر: تحقيق وعيد الله لأهل الفساد باعتلاء أهل الصلاح عليهم، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥- ٦]، وهذا يعني أن المؤمنين ينتصرون باطراد طاعاتهم وبتراكم جرائم أعدائهم.

وربما كان هذا الأمر هو علّة ذكر: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ...﴾ أي الإشارة إلى الامتنان، وكأن النصر هنا طائر ذو جناحين: جناح الصالحات الرافعة للمؤمنين وجناح الطالحات الواضعة للكافرين.

تحقيقُ الوعد:

رغم أن الله ألْهم أمّ موسى أن تلقيه في اليَمّ ووعدها وعداً حاسماً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، إلا أن فقهها السليم للدين دفعها إلى اتباع كافة الأسباب المستطاعة من أجل تحقيق هذا

الوعد، وأولها كان بعد الوعد مباشرة حيث لم يذهلها هول الحدث عن التفكير السليم، حيث قال القرآن عنها: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[القصص:١١]، أي تتبعي أثره، ففعلت الأخت متسلحةً بالحذر والتخفّي الذي عبّر القرآن عنه بقوله: ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:١١].

وتتابعت بعد ذلك الأسباب التي اجترحتها أسرةُ موسى حتى تُحقِّق وعد الله في موسى رسولاً .

***

مَراكِبُ العلم

العلمُ قبل العمل:

إن بناء الإنسان الصالح يحتاج إلى العلم قبل العمل، وأهم العبادات العلمية هي تدبر القرآن الكريم، وأهم العبادات العملية هي الصلاة فهي عمود الإسلام، قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وهذا الترتيب مهم جداً لصلاح الإنسان، فلا يمكن أن تصبح الصلاة ناهيةً عن الفحشاء والمنكر ومُذكّرة للإنسان بالله في محراب الحياة، ما لم يكن قد تَدبّر القرآن وسار خلفه في تعاليمه التي تضمن له الحياة الطيبة، ابتداءً من الصلاة الحية وهي التي تمتلئ بالوعي على المستوى العقلي، وتحتشي بالخشوع على المستوى القلبي، بحيث يتدبر المصلي ما يتلو ويعي ما يفعل ويستحضر عظمة من يناجي فيجمع في جوانحه بين الالتياع والارتياع.

العلم النافع:

بالعلم النافع يمكن أن يرتفع الكلب إلى منزلة الإنسان كما في قضية الصيد، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾[المائدة: ٤].

وفي المقابل يمكن أن ينحطّ العالِم إلى درجة الكلب إذا انسلخ عن آيات الله واتبع هواه، فلم يستفد من علمه ولم ينتفع من علمه غيره من الناس!

وكأن العلم بجواهر الأشياء يرتفع بالكائنات إلى أعلى عليين مثل كلب فتية الكهف، بينما يهبط الجهل أو اتخاذ العلم مطية لاجتناء زينة الحياة الدنيا في كل سبيل وبأي وسيلة، يهبط بأصحابه إلى أسفل سافلين كعابد بني إسرائيل الذي انسلخ عن آيات الله وصار كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!

الإنسان عدوٌّ ما يجهل:

«الإنسان عدو ما يجهل» حكمةٌ عربية صحيحة، أكدها القرآن الكريم عندما تحدث عن تكذيب المشركين للقرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ...﴾ [يونس: ٣٩].

وهذا يعني أن الجهل أحد أسباب التكذيب، وأن زوال الجهل سيزيل هذا العامل، ولذلك كانت معجزة هذا الدين العظمى معجزة عقلية وهي القرآن الكريم، وفي أول سورة من سور هذا الكتاب العظيم كانت أولى كلماته وأوامره هي: «إقرأ»؛ لأن القراءة هي أهم مواسح الجهل، وهي حجر الزاوية في بناء قصر العلم الفاره.

وكم أرتنا الحياة من مشاهد رأينا فيها حقائق تُكذَّب وقطعيات تُرَد، ومن دون أي سبب سوى الجهل ! وكم يخسر الإنسان بسبب ما يَردّه جهله وما تأباه غفلته !

وكم تفوت على الإنسان من خيرات بسبب أميته الفكرية كما يحدث مثلاً لمن يجهل الفرق بين البُعدين الاستعماري والحضاري في تكوين منظومة الغرب، حيث رأينا من يرفضون حضارته النافعة بسبب غزوه البشع لبلداننا !

أقسامُ العظمة:

لقد أقسم الله في القرآن بمخلوقات عظيمة وبظواهر عجيبة، ويتضح مدى اهتمام الإسلام بالعقل والعلم والفكر من استقراء تلك الأقسام.

ولقد كان أول كائن أقسم الله به هو القلم في مطلع سورة سماها باسمه: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، مما يدل على عظمة القلم وخطورته، ولا يوجد أي قسم بالقوة والسلاح سوى الخيل التي يدفع المظلومون بها عن أنفسهم الظلم، وذلك في سورة (العاديات) التي تكلمت عن كنود الإنسان وحبه الشديد للمال.

وأقسم تعالى بكثير من آيات الآفاق والتي أماط العلمُ الحديث اللثامَ عن أسرارها فجاءت مصداقاً لإشارات القرآن وفتحاً عظيماً لهذا الدين، حيث أقسمَ بالسماء ذات الرَّجْع والأرض ذات الصَّدْع، وأقسم بالبحر المسجور والسقف المرفوع، وأقسم بالسماء ذات البروج والسماء ذات الحُبُك وبالسماء والطارق، وأقسمَ بالنجوم إذا خنست أو هَوَت، وبمواقع النجوم، وبالقمر إذا تلا الشمس أو اتّسَق معها.

قواربُ المعرفة:

المعرفة هي القارب الذي من ركبه نجا من السقوط في دوامات الدنيا وابتعد عن الغرق في بحار الحياة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فلا يستوي من غرق ومن نجا من الغرق كما لا يستوي الأعمى والبصير.

مِسْك:

قد يغرق الإنسان في لُجَج الحياة ولا تُمكِّنه مركبةُ العلم من العروج إلى الله، وذلك إذا لم يصاحب العلم الإخلاص في كل عمل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وتؤكد لنا هذه الحملة القرآنية العظيمة أن امتلاك جناح واحد لا يحقق الطيران بتاتا، فالعلم والإخلاص هما جناحا التحليق في آفاق العبودية الكونية الواسعة ووسيلة العروج نحو الفردوس المفقود!

مَقاليدُ التقاليد

رفْضُ العصر:

التقليديون لا يَصلُحون كلَبناتٍ في جذور الحضارة المعاصرة، مهما كانت علاقتهم بالله طيبة؛ لأنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم، ولا ينفتحون على جديد العصر؛ إذ لا يستفيدون من منجزات العلم النافعة ولا يتعلمون من خبرات الشعوب المتقدمة، وألْسنة حالهم تقول: ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ...﴾ [المائدة: ١٠٤]، ولهذا قالوا: ليس في الإمكان أحسن مما كان، وقالوا: ما ترك الأول للآخر شيئا!

ولا يزال هؤلاء يواجهون المصلحين والمُجدّدين بروح التوجُّس وعقلية التآمر، مُستعيرين ألْسنة السابقين الذين قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، وتأمّل عزيزي القارئ في جملة: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾، وستجد كم أن هؤلاء متشبعين بالماضي إلى حد التقديس، لتصبح كل محاولة للعبور فوقه جريمه تستحق المواجهة بكل سلاح والتضحية بكل غال ونفيس.

السَّيلُ التأريخي:

إن الذين يُقلدون أسلافهم تقليداً أعمى، حتماً سيتكسّرون على جدار الزمن ويَشنُقون أنفسهم على حائط العصر، وسيصيرون مجرد غثاء في مقدمة سيل التأريخ الهادر، حيث لا يملكون إرادةً ولا يهتدون سبيلاً.

إنهم يُبرّرون كل جهل وشذوذ باتباع التقاليد، ويُسوّغون كل انحراف عن الجادة بالسير خلف الأجداد، ويُعلِّلون الصدود والإعراض عن الحق باتباع الآباء، حيث يردّدون بلساني الحال والمقال: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، وكذا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، وكأن

آباءهم أنصاف آلهة تنزلوا من السماء أو أنبياء لا ينطقون عن الهوى، وكأن ما تركوا من تراث نسبي وحياً مقدسا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

وتزداد الصورة بشاعةً عندما يحتكر هؤلاء الحقيقة؛ معتقدين أنهم على الحق المبين، وأنهم مقتدون بآبائهم في طريق الهداية، كما قال تعالى على ألْسنة أسلافهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

تيارُ الآبائية:

إن الفكر الآبائي فكر تقليدي أعمى، ليس له حظ من تبصّر العقل أو بصيرة القلب، ولذلك عاب القرآن على هذا الفكر، فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ورغم ذلك فإن حميّة الجاهلية وثقافة القطيع تعطيانه زخماً كبيراً، حتى أن رؤساء هذا التيار يُعبئون الجماهير ويستفزونها بهذا الفكر، كما قال تعالى على ألْسنة بعضهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]، ولنلاحظ كلمة ﴿يَعْبُدُ﴾ فإنها تنثر ظلالا من القدسية على ما كانوا يفعلون من الضلالات والأباطيل؛ مما يثير حمية الجهلة ويستفز نخوة الحمقى!

أزمةُ الجهل:

بجانب تحويل العقول إلى مجرد أواني فارغة تتلقّى ما تقرأ عن الأجداد بتسليم مطلق، وتتلقّن ما تسمع عن السلف بدون أي تدبر أو استبصار، فإن التقليديين يعانون من أزمة حادة في فهم هذا الدين كما جاء من منابعة الصافية!

ولأن الإنسان عدوُّ ما يجهل فإنهم يُكذِّبون بما لم يُحيطوا بعلمه ولمّا يأتِهم تأويلُه!

المسؤولية الاجتماعية:

وردت في سورة البقرة قصة القتيل الذي لم يعرف بنو إسرائيل من هو قاتله، ومع أن الذي باشر القتل شخص واحد، فقد حمّل الله بني إسرائيل المسؤولية حتى أضاف القتل إليهم جميعاً: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾ [البقرة: ٧٢]، ذلك أن البيئة الاجتماعية العليلة هي من أسهمت في صناعة القاتل، ومن ثم فإنهم شركاء في الجريمة مهما اختلفت الأدوار وتَغيَّرت النسب، ما دامت تلك الثقافة مستمرة وتلك البيئة متناسلة!

وكان الذين عقروا ناقة نبي الله صالح تسعة كما تخبرنا كتب التأريخ، وتولى كبر الجريمة شخص واحد يُدعى قُدار بن سالف: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾، فهو أشدهم شقاوة، لكن مسؤولية عقر الناقة تتحملها الجماعة الثمودية قاطبة؛ نتيجة الجو المسموم الذي صنعه جميعهم، وبسبب التكذيب الجماعي بصالح ورسالته: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، ولهذا كان العقاب جماعياً: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾، ولا شكّ أن الله لا يعاقب إلا الظالمين فإن الله لا يظلم أحدا.

الحرية أوّلاً:

تتفاوت أجور العبادات بحسب تفاوتها في خدمة المقاصد، فكلما كان المقصد أسمى كان الأجر أجزل، وكلما كان المستفيدون من أي عبادة أكثر كان الأجر أوفر.

وتبدو الأهمية البالغة لمقصد الحرية من آيات كثيرة، إن تدبرنا صياغاتها المُحْكمة، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ...﴾ [البلد: ١١-١٣]؛ فتحرير الرقاب من ذلّ الرّق هو أهم المقاصد

المرتبطة بكُلِّية الإنسان، حتى الإطعام من جوع هو تحرير من رِقّ الفقر الذي هو قرين الكفر؛ لأنه يدفع الإنسان لتعبيد نفسه لمن يملك ضروریاته !

وإذا كان الرقُّ التقليدي قد طُويت صفحتُه في كل بلدان العالم، فإن بلداننا تَعجّ في هذا العصر بقطعان من العبيد المُقنَّعين، نتيجة شيوع صور خفية من الرِّق الثقافي والرّق الاقتصادي والرّق الاجتماعي، وغيرها من الصُّوَر التي تنتصب كعقبات دون وصول الآدمي إلى ذروة إنسانيته الكريمة، ولذلك فإن إزالة هذه العقبات من طريق حرية الناس تستحق من الله المساعدة على تجاوز العقبة الموجودة عند الصراط المضروب فوق جهنم حتى يعود أبناء آدم إلى الجنة !

***

تَسبُّبُ الأنبياء

البحثُ عن الأسباب:

رغم علاقة الأنبياء المباشرة مع الله، ومع تأييده لهم بالآيات الخارقة للسُّنَن والنواميس الكونية، دلالةً على صدقهم وتبليغهم عن الله، فقد كانوا في سائر أحداث الحياة يتحركون مثل سائر الناس، إذ كانوا يستثمرون الأسباب في عمارتهم للحياة، وفي تفاعلهم مع الظواهر والحوادث وتعاملهم مع سائر الكائنات.

فها هو نبي الله لوط - مثلاً - يواجه قوماً تفوّقوا على الحيوانات في انحطاطها، وعندما جاءته الملائكة على هيئة بشر استضافهم بكرم بالغ مثل عمه الخليل إبراهيم عليه السلام، وجاءه قومه يهرعون إليه مستبشرين بهذا الصيد الثمين عازمين على اغتصاب الضيوف!

وروى القرآن كيف فكَّر لوط بكل سبب يمنع هؤلاء من الاعتداء على ضيوفه الذين لم يخبروه أنهم ملائكة إلا متأخرا، لدرجة أنه عرض بناته عليهم، والمقصود ببناته من انحدرن من صلبه كما تفيد لغة العرب التي نزل بها القرآن وليس زوجاتهم كما ذهب إلى ذلك عدد من المفسرين، وهذا يوضح كيف حاول لوط أن يفكر بأبعد الأسباب من أجل حماية ضيوفه!

ولم يلجأ إلى الله من أول وهلة بل ظل إلى آخر لحظة يكابد التفكير بكل سبب ممكن، لدرجة أنه خرج من دائرة الممكن إلى دائرة التمني حينما قال للشاذين: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وفي الوقت الذي استنفذ لوط كل سبب ممكن عندها فقط أخبره الضيوف بأنهم رسل الله الذين أتوا لتأديب هؤلاء المنحطّين، آمرين إياه بالخروج من بين أظهرهم كما هو معلوم.

ترشيحُ الأكفياء:

من صفات القائد الناجح أنه عندما يختار فريقه المساعد يبحث عن أسباب القوة، ومن صور هذا الأمر التنقيب عن الكفاءات وأصحاب الكفايات والتركيز على أصحاب المواهب والقدرات التي تنقصه، ولا يجد القائد الذي يعرف قدر نفسه أيَّ غضاضة في أن يكون مساعدوه أفضل منه في بعض الخلال والخصال، بل هو يبحث عن هؤلاء كما يبحث المرء عن جوهرته التي ضاعت منه.

وقدوة هؤلاء هو موسى عليه السلام؛ فقد كان يعاني من مشكلة في لسانه تَحول دون بيان مراميه وتنقص من فصاحة خطابه؛ ولذلك فقد طلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون، مبيناً بكل وضوح تفوقه عليه في فصاحته، حيث قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤].

وعندما ابتعد قادة عصرنا عن منهج القرآن صار أغلبهم يختارون بطاناتهم من الأقزام؛ وذلك حتى يَظهروا بجانبهم عمالقةً، ومن أجل أن لا يُقدموا بين أيديهم ولا يعارضونهم، بل يُسلِّمون لهم وينقادون مستسلمين!

همُّ الرزق:

مع أن الإسلام يُحذِّر من دخول الدنيا إلى قلب المؤمن إلا أنه يجعلها همّاً من همومه، ولذلك كان ﷺ يدعو ربه فيقول: «اللهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همّي ...» ولم يقل هماً من همومي، فهي هم ولكن دون هموم الآخرة.

ولذلك فإن المسلم بمجرد أن يخرج من المسجد يذهب لطلب الرزق، ويفعل ذلك حتى يوم الجمعة كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، ولنلاحظ كيف يُرغِّب القرآن بطلب الرزق حيث

يسميه بـ «فضل الله»، وكان من دعاء النبي ﷺ عند الخروج من المسجد: «اللهمَّ افتح لي أبواب فضلك».

القلَقُ المعرفي:

إن ارتياد المجهول انطلاقاً من أشواق المعرفة، وإن القلق الذي يصيب المؤمن عندما لا يعرف كُنْهَ الأشياء إنما هو عرَض من أعراض اتِّباع الأسباب المأمور به شرعاً في إطار عالم الشهادة.

وفي قصة كليم الله موسى مع الخضر يبدو النَّهَم العلمي والقلق المعرفي باديين عند موسى، ولأن الله ألْهم العبد الصالح أن يُعلِّم موسى العلاقة بين الأسباب الكائنة في عالم الشهادة وبين الأسرار الكامنة في عالم الغيب، مع إدراكه لقلق موسى؛ فقد قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟!

***

مَجَاني الصلاة

التدلّي المانع من التدنّي:

من أقام الصلاة بجوانحه وجوارحه إنما هو كشجرةٍ باسقة في آفاق السماء، إذ أن ثمارها المُتدلية تمنع طبائع الفجور من الظهور في سلوكياته، فقد قال الله سبحانة وتعالي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، ذلك أن هذه الطبائع تتدنى بالإنسان وتنحدر به في طريق التسفّل.

إن الصلاة تنتمي إلى الروح الإلهية والعالَم العلوي، وبذلك فإنها تمنع آفات التراب وطبائع الفجور من الظهور في مشاعر الإنسان ومعاملاته، فاستحقت أن تكون عمود الدين ومطية الفلاح، قال عزّ ذكرُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

بهجةُ القلوب:

عندما تقرُّ أعينُنا بالصلاة فإنها ستقَرُّ برؤية النهوض الإسلامي المنشود، ذلك أنها عمود الدين، وإذا استقام الدين قامت الدنيا وتَحقّق النهوض الموعود.

فلقد كانت الصلاة قُرَّة عين المصطفى المحمود ﷺ، وكان يتطلع بشغَف بالغ إليها ويتشوق بحُرقة شديدة إلى دخول أوقاتها، حتى إذا اقترب موعدها قال لمُؤذّنه: «أرِحْنا بها يا بلال» !

ومن المؤكد أن هذه الثمار الطيبة لا تحدث إلا بعد الوعي بمقاصدها وشروطها وأركانها، وإقامتها بقوامَيها المادي والروحي، وبعد المجاهدة والمكابدة في سبيل الالتزام بمواقيتها واستحضار جلال الله في أكنافها، والدأب على تطبيق مقاصدها الأمْرية والتَّزْكية في سبل الحياة وشُعَب الإيمان المختلفة.

قُرَّةُ الأعْيُن:

ما زال ﷺ يكرس ليلَه للقيام بين يدي ربه صلاةً وتسبيحاً وذكراً ودعاءً، وما انْفكّ يطيل القيام ويتقلب في الساجدين، حتى أشفق عليه ربه فقال له عزّ من قائل: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ...﴾.

وما برح يكابد آلام الوقوف الطويل حتى تفطّرت قدماه، وما فتئ يجاهد عينيه الناعستين حتى صار لا ينام قلبهُ مهما نامت عيناه، ومن هنا دَلف إلى رفاهية الصلاة حتى صارت قرَّة عينه ومصدر ابتهاجه وسرّ سعادته الأكبر!

فقد قرَّت عينهُ بفضل الصلاة عن رؤية الشهوات ومتابعة زينة الدنيا، فضلاً عن رؤية ما حرمَّ الله عليه، إذ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

وبالصلاة قرَّت عينهُ بما رزقه الله من متاع الدنيا فرأى القليل كثيراً والهيِّنَ عظيما، ورضي بما قدّره الله له من أقدار حتى استحالت المَضرّات إلى مَسرّات والمحن إلى منح، غير ملتفت إلى أقدار الآخرين من أصحاب الحظوظ الدنيوية الواسعة الذين آتاهم الله سعة في الرزق، ومنحهم تنوعاً في الطيبات، ووهبهم غزارة في الأولاد وجمالاً في الزوجات.

لقد قرَّت عينُهُ بالصلاة لأنها، بعد مكابدات ومجاهدات، صارت راحته ومُستراحه، وصارت قُوتَه وقُوَّته، وصارت مصدر بهجته وتَوهّجه!

لقد صارت سرّ سعادته التي ينافح بها أكدار الحياة، وجوهر لذته التي يُحلّي بها مرارات العيش، وصارت سلاحه الذي يُشهره في وجه عابسات الليالي وتحديات الأيام، وصارت زاده الذي يُسعفه بالتذكير من غفلاته كإنسان، ومدده الذي يمنحه القوة ويقيه من عثرات البشرية، وصارت سلاحه الفتاك في مواجهة النوائب ومدافعة الظالمين، ولذلك فإنه كان يلجأ إليها كلما تكاثفت عليه غيوم الهموم أو أحاطت به أدخنة التحديات.

درع الصلاة:

إذا كان القرآن الكريم هو البوصلة التي تقي الإنسان من الضلال في فيافي الحياة والتيه في قفارها؛ فإن إقامة الصلاة هو امتلاك للدرع الحامي من السهام المعادية أثناء السير العبادي في محراب الحياة، ومن أضاعها فقد أضاع درعه الواقي ومن ثم سيصير عرضة لسهام النوائب وسمّاعا لأصوات الشهوات، ومن هنا فقد ربط القرآن بين الأمرين كما في قوله تعالى: ﴿فخلَف من بعدهم خلْفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات﴾.

***

أشواكُ النفوس

النفوسُ الشَّوكية:

إن فطرة الإنسان التي سوّاها الله تُشبهُ الأرض، إذ أن في هذه النفوس عيون ماء غزيرة وأنهارا كبيرة، وفيها نواحي جافة وفيافي جرداء، وتمتلك الفطرة القدرة على الاحتفاظ بالمياه في جوفها، ولكن العامل الحاسم هو الأمطار التي يُمثّلها في حالتنا القرآن الكريم، فإن لم تنسكب سحائب القرآن تيبّست العقول وجفّت الأرواح، وقست القلوب وضمرت الأفئدة، حتى تصبح حقولاً خصبة لاحتضان أشواك الأذية وازدهار أشجار الخبائث!

عدم الاغترار بالمظاهر:

لا يتخلى المؤمن عن كياسته وفطنته مهما بلغ به حسن الظن، فهناك أناسٌ يجعلون من الطاعة مطيةً للمعصية، بل ويحيكون المؤامرات في أماكن العبادة الشعائرية وهي المساجد.

ومنذ العصر الذهبي للإسلام كانت بذور هذه النبتة الخبيثة موجودة، حيث اتخذ المنافقون في عهد النبي ﷺ مسجداً ضراراً لصناعة الأذية للمؤمنين ولمعاقرة الكفريات تحت ظلام التخفي والاستتار، وجعلوه منطلقاً للتفريق بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، كما جاء في سورة الفاضحة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ونتيجة تَعقُّد الحياة وتقدم الحضارة وبسبب تراكم خبرات المنافقين؛ ظهرت في زماننا بجانب مساجد الضِّرار: جمعيات ومؤسسات الضّرار، وأحزاب

وجماعات الضّرار، وقنوات وصحف الضِّرار، ومواقع وصفحات الضرار، حتى تَفوّقوا على آبائهم الأولين، بينما أحفاد الصحابة ما زالوا دون ما كان عليه أسلافهم بكثير، ولا سيما في الجانب الإعلامي!

نسبيةُ النفس:

اختلف العلماء والفلاسفة والمتصوفة في تعريف النفس، ويبدو لي أن النفس تتكون من التفاعل بين أشواك التراب وأشواق الروح، وتمثل المتوسط العام الذي ينتج عن تزاوج إمكانات الفجور والتقوى أو تفاعل عوامل التّزْكية والتّدْسية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠]

وقد اهتديت إلى هذا التعريف الذي يبدو لي دقيقا؛ لأنه يتناسب مع نسبية النفس المذكورة في القرآن والتي تتراوح بين ثلاثة مقامات:

- مقام النفس الأمّارة بالسوء:

وذلك عندما تتغلب أشواك الشهوات على أشواق التقوى، كما قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿إن النّفس لأمّارة بالسوء﴾، وأصحابها هم أهل الشمال الذين اتخذوا أهواءهم ونزواتهم وغرائزهم أندادا لله فساروا حيث أمرتهم وتوقفوا حيث نهتهم: وإلى هذا المعنى يشير الله تعالى بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

- مقام النفس اللوّامة:

عندما تتقارب الأشواق والأشواك في التأثير مع رجحان أشواق الطاعة على أشواك المعصية، بحيث تلوم النفس صاحبها كلما ألمّ بذنب فيسارع إلى التوبة

والإنابة ولا يتوقف عن الاستغفار: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، وأصحابها هم أهل اليمين الذين تتغلب حسناتهم على سيئاتهم.

- مقام النفس المطمئنة:

عندما تتغلب أشواق الروح على أشواك التراب بصورة سافرة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ...﴾، وأصحابها هم السابقون الذين أحسنوا إتقان عبوديتهم لله في محراب الحياة متنقلين بين مختلف شُعَب الإيمان، وتبقى سيئاتهم بسيطة وناتجة عن بشريتهم التي تميزهم عن الملائكة.

مآثمُ كتمان الحق:

إن كتمان الحق في القلوب ككتمان الشهادة مثلاً؛ يجعل القلب عرَصةً خصبةً لترعْرع أشجار الإثم وتضخّم صبّار الشرور، قال تعالى ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

أسوأُ الكسب:

النفوس العليلة هي التي تزين لصاحبها السوء، فيندفع لاكتسابه بحماس ظاناً أنه يحسن صُنعا، وأسوأ أنواع الكسب هو كسب الآثام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ ...﴾ [النساء:١١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ [الأنعام: ١٢٠]، ومع أن الكسب عملية ربح بينما تمثل الآثام خسارة محققة إلا أن الله استخدم مصطلح الكسب في صورة من صور التهكم ممن يفعلون هذا الصنيع بلهفة من يندفعون لاكتساب الرزق!

وهذه هي الحماقة الإنسانية الكبرى، إذ يكتسب المرء السموم التي تقتله والأشواك التي تَجرحُه، ويحتضن الأفاعي التي تلدغه والعقارب التي تلسعه،

ويشتري الخناجر التي ترتد إلى صدره والقنابل التي تنفجر في يده، وهو مع ذلك كله يعتقد أنه يُحْسن صُنعاً!

ألْسنةُ المنافقين:

لأن ألْسنة المنافقين (حِداد)؛ فإنها تتمدّد إذا أَمِنوا العواقب واعتلى أهل الكفر والفسوق، وتنكمش إذا خافوا من المؤمنين، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، وكأنهم بذلك السلق يعوضون فترات الصمت التي اضطروا لها أثناء مرحلة الخوف من سطوة المؤمنين، وهي إشارة إلى أهمية امتلاك المؤمنين لأسباب القوة وإدارتهم لمقاليد الأمور !

خطرُ المقارنة:

هناك فروق عديدة بين معصيتي إبليس وآدم، ومنها أن إبليس اعتبر تكريم الله لآدم تفضيلاً له عليه، أي أنه تم على حسابه وخصما من مكانته، أما في حالة آدم فقد تمت المُقارفة للمعصية بعيداً عن المُقارنة مع إبليس أو الملائكة.

قال تعالى على لسان إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ...﴾ [الإسراء: ٦٢]؛ ولهذا حصد إبليس اللعنة ورجع آدم بالتوبة!

***

جَوارِحُ الجَوانِح

تَفاعُلُ الجوانح والجوارح:

بين الجوانح والجوارح علاقة دائرية تكاملية، إذ يصبح كل منهما سبباً ونتيجة، ويصير فاعلاً ومنفعلاً أو مؤثراً ومتأثراً، فالقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلحت سائر الجوارح والأعضاء.

ولذلك علّق الله الفلاح في الآخرة بسلامة القلب، كنايةً عن سلامة الجوارح كلها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ومن المؤكد أن صاحب القلب السليم لا يشرك بالله شيئا ولا ينتهك أياً من حرمات غيره من الخلق، وهذا هو المؤهل الأساسي لدخول الجنة.

وفي ذات الوقت فإن أعمال الجوارح تؤثر على طبيعة الجوانح، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المُطفِّفين: ١٤]، بحيث تُنكت نكتة سوداء في القلب كلما ارتكب قالب الجسم ذنباً، ويكون حجم النكتة بحجم الذنب.

ولا شكّ أن المعاصي المرتبطة بالمال من أخطر المعاصي في تسويد القلوب، كالذين يجعلون أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من الأشِحّاء والبخلاء أو الذين يبسطونها كل البسط إسرافاً وبداراً، ولهذا فقد وردت الآية السابقة: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ في سورة (المُطفّفين)، وهم الذين يأكلون أموال الناس بالباطل. ولاحظِوا أن الله سمّى السورة بـ(المطفِّفين) وكان يمكن أن يسميها (التطفيف)، لكنه أراد أن يُبرز جُرم هؤلاء من العنوان وكأنه يصور جريمتهم البشعة وهي تمارس الإفساد في المجتمع بصورة حية، هذا بجانب أنه ابتدأ السورة بالويل، والويل هو للذين مارسوا التطفيف الظالم!

اعتداءُ الفكر والفعل:

إن المعتدين على حقوق الآخرين، وإنّ الوالغين في حرمات غيرهم، وتحت أي مسمى طائفي أو مذهبي أو ديني كان، لا يتورعّون عن أي شيء، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي.

ولذلك ربط القرآن بين شراء هؤلاء بآيات الله ثمناً قليلاً وبين اندفاعهم في القتل والإجرام بدون أدنى تأثُّم أو تحرُّج، فقال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

لقد وصل الانحراف الفكري إلى حد بيع آيات الله مقابل ثمن قليل، وإلى تشويه صورة الدين أمام البشر مما يساعد في صد الناس عن طريق الهداية، ووصل الإجرام الفعلي إلى حد الاستحلال وعدم الشعور بالإثم بل وعدم احترام العهود والذِّمَم!

ولاحِظوا أن عدم التأثُّم والتذمُّم هو مع المؤمن، وهذا ما نراه في الواقع عند أمثال هؤلاء، حيث يستمتعون بسفك دماء المؤمنين، ويُخضعون دماء غيرهم لحسابات عديدة، مما ينقذ كثيرين من القتل والامتهان واغتصاب الحقوق!

تأثير الأفعال على الأفكار:

يتبادل الفكر والفعل التأثير، فمع أن الأفعال انعكاس للأفكار، إلا أن أعمال الجوارح تؤثر على طبيعة الجوانح وعلى كيفية نظرتها للأمور وتعاطيها مع الأشياء.

وعلى سبيل المثال فقد تَحدّث القرآن عن أُولي الطَّوْل الذين يستأذنون الرسولﷺ بالنكوص عن قوافل الجهاد والبقاء مع شراذم الخوالف، وهم مقتدرون وليس لهم عذر ولا يعانون من نقص، فقال عنهم: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا

مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، فقد آثروا القعود عن الخروج والجهاد على اجتراح التفكير والاجتهاد، حتى صارت قلوبهم مطبوعة وصاروا لا يفقهون حديثاً ولا يهتدون سبيلا!

خطورةُ الإجرام:

النفاق مرض قلبي يتسبّب في إحداث انفصام خطير بين الجوانح والجوارح، بحيث يُبطن المرء ما لا يُظهر ويقول ما لا يفعل!

وإذا تَجنّدت الجوارحُ لتجسيد أحقاد الجوانح على المؤمنين، والتآمر عليهم مع الأعداء، فإن هؤلاء يُضيفون الإجرام إلى النفاق، ومن ثم تَوعَّدهم الله بالعذاب، بينما قد يعفو الله عن الصنف الأول.

قال تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦]، ولنلاحظ باء السببية في ﴿بأنهم﴾ لنتأكد من خطورة الإجرام، وكأن الله هنا يشير إلى أنه قد يتسامح في حقه الخاص لكن الذين مارسوا الإجرام في حق الناس لن ينجوا من العذاب.

حقيقةُ المَحبة:

إن محبة الله ورسوله ليست شعارات تُدبج ولا كلمات تُقال، إنما هي منهجٌ متكامل للسير الدائب في الأرض لا بد أن يتم أخذه بقوة، وهي عطيةُ هدايةٍ ينبغي أن تُنال بحكمة.

لقد جعل القرآن الاتباع هو حقيقة المحبة وبرهانها وثمرتها اليانعة، كما قال تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ... ﴾، والاتباع هو السير المبصر والاقتداء الواعي في سائر نواحي العبادة الشاملة التي تستهدف عمارة الأرض وصناعة الحياة.

قَلائدُ الهداية

هدايةُ الوظيفة:

خلق الله في الأرض وحدها الملايين من الكائنات التي تمتاز عن غيرها بخصائص وأحجام وصور مختلفة، وهداها لوظائفها التي تستقيم بها الحياة، ويحدث من خلالها التوازن البيئي الضروري لمعيشة الإنسان على الوجه الأمثل.

وقد أوْمأ القرآن الكريم بطريقته الموجزة إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿الَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أي منح كل كائن صورته الخاصة وهداه لما هيّأه له من الوظائف والأعمال، وهذا يؤكد قصْدية الخلْق ووظائفية الكائنات، وينفي عبثية الخلْق.

جبالُ الهداية وأوحال الغواية:

لما كان القرآن محكم الآيات، فإن من تأمل حروفه تأكد له أن هذا القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، إحكام بالغ، فقد استخدم مع الهداية حرف (على)، كأن الهداية جبل شامخ اعتلاه المؤمن ببُراق المعرفة والإخلاص، واستخدم مع الضلال حرف (في) الذي يفيد الانغمار، كأن الغواية مستنقع آسن انغمس فيه !

إقامةُ الهداية:

إن الوصول إلى ذروة الإمامة في الهداية بأمر الله هو جَعْلٌ إلهي خالص، لكنه مفتوح ومتاح لمن امتلك الأهلية المشروطة بشرطين:

الأول: استيطان هضاب الصبر

الثاني: اعتلاء جبال اليقين.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، والأئمة هنا هم الأمراء والعلماء الذين يتعاونون على إقامة هدى الله في حياتهم ويدعون الناس إلى تلك الهداية بأفعالهم قبل أقوالهم، مما يعطيهم قبولا لدى الناس ويجدون لهم أتباعا يقودونهم نحو كل خير.

الهداية أكبر النِّعم:

ورَد في دعاء الاستقامة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، وهو طريق الهداية المُحقِّق لكل معروف والمُجانب لكل منكر.. المُوصل إلى كل خير والمُبعد عن كل شر، ووضّح الله صراط الاستقامة بأنه: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ومع أن الله ينعم على كل الناس بما فيهم المغضوب عليهم والضالين بآلائه المادية، إلا أن النعمة المقصودة هنا هي نعمة الهداية فهي أمّ النعم، لأنها تَتضَمَّن سعادة المعاش وتَضْمَن الفوز في المعاد، مع ما في الدارين من نِعَم لا تُعدّ ولا تُحصى !

هدايةُ الفكر والفعل:

في دعاء الاستهداء: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، تَعدّى الفعل بنفسه دون ذكر حرف الجَرّ (إلى) الوارد في عدد من الآيات المماثلة كقوله تعالى: ﴿وإنك لتَهدي إلى صراط مستقيم﴾، وهو أبلغ وأكمل مما لو ذكر حرف إلى، بما يشير إلى أن الدعاء هنا يشتمل على طلب التوفيق النظري لرؤية صراط الحق ومعرفته بجلاء، والإعانة العملية على الاستقامة في طريق الحق، كأنه يقول: اللهُمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه..

ومما يؤكد هذا المعنى إشارته في الآية إلى المُنعَم عليهم وهم الذين أراهم الله الحق حقاً ورزقهم اتباعه من النبيين والصِّدّيقين والشهداء والصالحين، بعكس المغضوب عليهم الذين أراهم الله الحقّ حقاً لكنه لم يوفقهم للسير في ركابه والالتزام بما في رحابه من شرائع.

وعكس هؤلاء هم الضآلون الذين منحهم الله زاد السير فامتلؤوا إرادةً وإخلاصاً لكن خُلوّهم من بوصلة السير تاه بهم في دروب الضلال، وضلّ بهم عن سواء السبيل !

وهذا يؤكد الحاجة الماسة إلى تضافر هدايتي الفكر والفعل، حتى لا ينزلق المرء عن طريق الاستقامة من بوابتي الغضب أو الضلال !

***

غرائبُ الشاذّين

الأمنُ الخاسر:

إن الشعور بالأمن نعمةٌ جليلة القدْر وعظيمة القيمة، إذ لا تُقدّر بثمن؛ ولذلك امْتنّ الله على قريش بهذه النعمة بجانب الإطعام من جوع، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾.

غير أن هناك نوع من الأمن السيّء وهو الذي يقود أصحابه إلى الخسارة والبوار، إنه الأمن من مكْر الله، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ذلك أن الآمنين من مكر الله لا يُقدّرونه حق قدره، فيغلّبون الأماني على الأعمال لينزلقوا رويدا رويدا في مهاوي المعاصي حتى ينغمسوا فيها تماما وينغمروا في مستنقعها الآسن.

اكتسابُ السيئات:

يُحبّذ الإسلام للمؤمنين الكسب الحلال ويُحبِّب الناس بتحقيق الربح، غير أن هناك كسب شديد السوء؛ لأنه يشتعل ناراً بأصحابه ويحيط بهم من كل جهة حتى يحرق كل خلية فيهم، هذا الكسب هو كسب السيئات، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

وسمّاه القرآن كسباً من باب السخرية اللاذعة، ثم إن أولئك المقترفين للسيئات كانوا يعتقدون أنهم يكسبون بها المتعة والزينة ويسعون من خلالها لتحقيق البهجة والسعادة!

الأمل المُلْهي:

ما لم يكن الأمل أداة لشحْذ الطاقات وتحفيز الهمَم، ووسيلة لإذكاء القدرات ومضاعفة الأعمال، فإنه يصير مُلهياً لصاحبه، بمعنى أنه يتحول من سلاح بيد الإنسان ضد أعدائه إلى سلاح يرتد إلى صدره فيقتله!

ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحِجْر: ٣]. فكيف يلهيهم الأمل مع أن الأمل باعث على العمل؟...يلهيهم لأنه أخذ صورة الرجاء وترك جوهر الأخذ بالأسباب فصار أمنية لا تغني عن أصحابها شيئا، ولقد قال عز من قائل: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾.

فتنةُ العلم:

في ظل شرود الإنسان عن منهج الله تستحيل سائر النعم بين يدي الغفلة إلى نقم، ومن تلك النعم العلم فإنه منحة جليلة، لكنه قد يصير محنة عظيمة إذا نَفَخ في أفكار الإنسان طبائعَ التراب وبعَثَ في تعاملاته أخلاق الطين، مما قد يدفعه مع طول المدى إلى الاستهزاء بآيات الله والصَدّ عن سبيله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]، وكأن الفرح بالعلم قد دفعهم نحو الغرور الذي رماهم في أخاديد الاستهزاء بآيات الله وانتقاص عباده والنيل من حقوقهم، وهذا طريق لا يوصل إلا إلى الهلاك المحقق.

خُلّاقُ الإفك:

إن ضعف البشر شديد الجلاء؛ إذ لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ولو كان ذبابة، لكنهم يملكون البجاحة التي تُمكّنهم من خلْق الإفك، كما ورد في خطاب خليل الله إبراهيم لقومه المشركين، قال تعالى:﴿...وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ...﴾ [العنكبوت: ١٧]، كأن الإفك مخلوق بشري صرف، يخرج من صلب الكفر وينْسَلّ من رحم الظلم!

مَصارعُ الظالمين

عقوباتٌ معنوية:

عندما كانت الأمم الماضية تنحرف بالكُلّية عن منهج الله وتكذب بالمعجزات المادية الخارقة للأنبياء؛ فإن العذاب الإلهي كان يتنزّل عليهم فيستأصل شأفتهم ولا يُبقي منهم أحدا، ومن تلك الأمم العرب البائدة كعاد وثمود اللتين لم يبق منهما أحد.

ولماكانت أمّة الإسلام خاتمة الأمم، ولأن معجزة الإسلام معنوية وليست مادية، فيبدو أن العقوبات أيضاً معنوية لا مادية أو ليست مباشرة، ونسبية وليست استئصالية.

فالخسف على سبيل المثال يتم بقلب الهرم الاجتماعي رأساً على عقب، حيث يؤتمن الخائن ويُخون الأمين..يُصدق الكذوب ويُكذب الصدوق، وحينها يتسلط الأراذل من الخلْق على كرام الناس ويعلو الفجار على الأبرار وينكل المجرمون بالأبرياء!

ولقد صارت الزّلازل في عصرنا هزّاتٍ اقتصادية عنيفة تُدمر كثيراً مما كان عامراً، وصار الطوفان يأتي على شكل موجات من الانحطاط الأخلاقي والتمزّق الاجتماعي الذي يهدم الكثير من القيم ويجرف الكثير من الفضائل، وهكذا.

رجْزُ الانحطاط:

ارتكب قوم لوط جريمة إتيان الذكور، فكان انحدارهم الاجتماعي شديداً، وصار انحطاطهم الأخلاقي موغلاً في التسفُّل؛ إذ أن الحيوانات نفسها لا ترتكب هذا الجرم الشنيع، ولذلك عاجلهم الله بالعقوبة، وكانت على شكل

رجْز نزل من السماء، قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

فلقد انْحطّ بهم الفسق في غياهب الانحلال، فجاء العقاب سماوياً بعد أن فقدوا كل ذرّة سُمُوّ، وبعد أن غاصوا في أعماق الانحطاط الحيواني مرتدّين إلى أسفل سافلين!

الزلزال الاقتصادي:

عندما تختل الموازين والمكاييل في أي أمة؛ فإن زلزالاً كبيراً يحيق بها في اقتصادياتها وفي علاقاتها الاجتماعية وفي قيمها الأخلاقية، حيث يؤدي إلى استغلال الأغنياء للفقراء، وفتْك الأقوياء بالضعفاء، ومع المدى تنهدم كثير من البيوت العامرة وتنقطع العديد من الأواصر الممتدة، وتستأثر قلة مستغلة غاشمة بخيرات المجتمع الوفيرة، مما يؤدي به إلى السقوط في غياهب الفقر وينحَطّ في دركات الأخلاق .

وهذا ما حدث لقوم شعيب الذين طفّفوا المكاييل في مدين وبخسوا الناس أشياءَهم وعثوا في الأرض مفسدين، فانقلب الهرم الاجتماعي وخرّ السقفُ عليهم من فوقهم!

إذ لما جاءهم شعيب برسالة الله كفروا بها وتمادوا في غيّهم الاستئثاري، عندها نزل العذاب الأليم، وكان على شكل زلزال استأصل شأفتهم عن بكرة أبيهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، ولنتأمل جملة: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، حيث صاروا جثثا هامدة لا حراك فيها في الصباح وهو وقت الحيوية والحركة والنشاط، ذلك الذي كانوا يذهبون فيه للسطو على أموال غيرهم من غير وجه حق وبحيل وأساليب إبليسية، كالربا والتطفيف والغش والقمار والاحتكار.

وفي هذا النوع من العذاب الزلزالي إشارة إلى أن اختلال القيم الاقتصادية في أي مجتمع إنما يُحدث فيهم أثر الزلزال الكبير أو الخسف العظيم!

وبالمناسبة كان هذا العذاب هو ذات العقاب الذي أصاب الله به طاغية الفساد المالي قارون، حيث خسف الله به وبداره الأرض، رغم أنه كان من قوم موسى وليس من قوم فرعون، فلم يُغنِ عنه الإيمان الشكلي من الله شيئا وصار بذات منزلة الكافرين!

ومن المعلوم أنه قبل نهاية الألفية الثانية حدث لدول جنوب شرق آسيا ما اصطلح على تسميته بالزلزال الاقتصادي، الذي كانت له آثار وخيمة أكثر من الزلزال البحري الذي تسبّب بكارثة تسونامي، إذ ما تزال تداعيات الزلزال الاقتصادي حاضرة في بعض الدول بعد نحو عقدين من حدوثه، عبر خسائر مالية تقدر بترليونات الدولارات وعشرات من الملايين الذين تم رميهم في قارعة البطالة وآلاف الشركات التي أفلست، مع انعكاس ذلك على القيم والأخلاق التي تتراجع في المجتمعات التي تفتقر بهذه الصورة، في ظل انعدام أو ضعف التربية التي تكبح جماح التأثيرات السلبية للفقر المدقع!

العدل العقابي:

يؤكد المنطق القرآني أن كل من تمردوا على شريعة الله الكونية والأمرية، إنما يظلمون أنفسهم بل ويختارون طريقة هلاكهم بأنفسهم، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ولو تأملنا طريقة هلاك كل قوم لوجدنا بوضوح أن الجزاء من جنس العمل.

مفاتيحُ التغيير

مفاتيحُ القلوب:

صحيحٌ أن كل ما في الكون والحياة يسير وفق مشيئة الله ويُجسِّد قدراته التي لا تَحدّها حدود ولا تمنعها موانع، غير أن هذه المشيئة ذاتها هي من جعلت إرادة الإنسان مفتاح التغيير نحو الأحسن أو الأسوأ.

فلقد جعل الله أفعال الإنسان أسباباً لأفعاله، حيث أكدت هذه القاعدة بآية مُحكمة لا يأتيها اللبسُ من بين يديها ولا من خلفها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وفي القرآن عشرات الآيات التي تسير على ذات الصراط التغييري المستقيم وتؤكد نفس الحقيقة، فنصرُ الله للمؤمنين هو ثمرة انتصارهم لمنهجه، وفي المقابل فإن كيده لأعدائه هو ثمرةُ كيدهم لأوليائه، ومكره بأعدائه هو عقوبة مكرهم بعباده!

وفي ذات الدّرب فإن الله لا ينسى إلا من نَسيه، وحكم بأن لا يزيغ من القلوب إلا من زاغ عن هُداه، وآثر السير وراء نزعات الأهواء ونزغات الغواية !

تغييرُ الذات:

ما زلنا في الغالب لا نُحسن رؤية الأشياء كما هي، ولا نُجيد توصيف الواقع على طبيعته؛ بسبب الغبَش الفكري والغشّ العلمي في التركيبة المعرفية السائدة، وبسبب غواشي المنهج الذرائعي وطغيان الحسّ التبريري في بُنانا الفكرية، فإذا تفرقّت الصفوف حمّلنا المسؤولية للطوائف، وإذا تشرذمنا في الآفاق أعَدْنا الأمر لتعدّد الأعراق، وإذا فرّطنا في قيم النظام اتّهمْنا النظم السياسية بالمسؤولية!

إن الخلَل يا سادة ليس في نوعية النُّظُم والقوانين التي تحكم حياتنا، ولا في تعدّد الأعراق والطوائف التي تتوزع في بلداننا، وإنما يكمن الخلل في تركيبة الإنسان نفسه وقوامه الفكري والروحي، ولهذا قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وهذا لا يعني أن الأمور الأخرى لا دخل لها في ما نعاني منه، ولكن جوهر الخلل يكمن في الإنسان الذي هو غاية الإصلاح ووسيلته، وبدون إصلاحه فإننا نضع مفردات الإصلاح في سلّة مثقوبة !

صناعةُ الجوع:

إن الجوع الذي تتعرّض له بعض المجتمعات إنما هو صناعة تَولّته أيدي الناس أنفسهم، نتيجة المظالم التي تؤدي إلى استئثار أقلية من الجبابرة بأقوات الأكثرية المستضعفة، وهذا هو عين الكفران بأنعم الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ونتيجة مبالغة الظَّلَمة في استلاب اللقْمة من أفواه المظلومين، فقد أجاد النص القرآني تصوير النتيجة، حيث قال الله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ...﴾، دلالةً على المرارة الشديدة التي يذوقها من انتقلوا من الشبع إلى الجوع ومن الأمن إلى الخوف، ثم إن مشاعر الجوع والخوف لا تبارحهم كأنها صارت لباساً لهم !

العمل قبل الدعاء:

إن الدعاء الخالي من التسبُّب نوعٌ من التواكل المذموم، فقد كان ديدن المؤمنين الصحاح في كل زمان ومكان هو العمل الدائب، والتسلح بالأسباب،

والمسارعة في الخيرات، مع التوكل على الله والاستعانة به على كل المستويات، ومنها مستوى الدعاء.

وعلى سبيل المثال فقد أثنى الله على زكريا وآل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

ونلاحظ أن الآية قدّمت المسارعة في الأعمال الخيِّرة على الدعاء الذي تمتزج فيه الرغبه بالرهبة، والرجاء بالخوف، والأمل بالخشية.

***

خِلالُ الرِّجال

شجَرةُ العهد:

إن الرجال وحدهم هم من يستطيعون الوفاء بعهودهم مع الرحمن، ذلك أن العهد مع الله شجرة تُسقى بالعرَق والدّموع، وتروى بالدماء والأشلاء، ومن المؤمنين من ينجحون في الأولى دون الثانية، لكن الرجال هم وحدهم من يستطيعون الاثنتين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ...﴾.

ومن نافلة القول التأكيد بأن الرجولة هنا لا علاقة لها بجنس الذكورة، فهي صفات عظيمة عامة، من تحلّى بها من الذكور والإناث دخل في جملة الرِّجال الذين أثنى الله عليهم في عديد من آياته البينات.

المُداعبة والمُلاعبة:

إن مداعبة الأهل وملاعبة الأطفال من شِيَم الرجال الذين لا يعانون من عُقد نقْص في تركيبة شخصياتهم ولا تتحكم بسلوكياتهم مركبات الدونية، وهم الذين يملكون إرادات أقوى من الحديد وقلوباً أرقّ من الحرير، ومن ثم فإنهم يتنقلون بين الجِدّ واللعب، ويراوحون بين الصرامة والمداعبة؛ وفْق بوصلة الفكر السليم والفطرة السوية.

وتحكي لنا كتب السيرة النبوية بأن النبي ﷺ كان يلاعب الأطفال ويداعب النساء، وأنه كان يمزح مع أصحابه ويضحك مما يضحكهم، حتى أنه كان يضحك حتى تبدو نواجذه. وأورد لنا القرآن الكريم في قصة نبي الله سليمان أنه، مع نبوته ومُلكه وما آتاه الله من النعم التي لم يعطها لأحد من قبله ولا من

بعده، أنه كان يضحك مما يضحك له الناس في العادة، حتى أنه حينما سمع نداء النملة لبنات قومها بالابتعاد من طريق سليمان وجنوده حتى لا يدوسونها من غير قصد، روى القرآن ردة فعله، فقال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

الرّجولة العقلية:

لا تتم (الرُّجولة) إلا إذا (تَرجّل) المرء من حصان العجَلة، وسار في طريق التّروّي والتأنّي، وخَبِر دروب الصبر والتّريُّث، مع ممارسته لأعلى درجات الصرامة والانضباط، ومحاصرة مشاعر العثور والاندفاع، والتحكم بالعواطف والانفعالات، ولجْم المشاعر بالرُّؤى وربط العواطف بالأفكار، والتسلح بالخطط المبنية على معلومات دقيقة وتقديرات صحيحة، بعيداً عن الارتجال والعشوائية وعن التهويل أو التهوين.

مقاليدُ الجاهزية:

من صفات الرجال أنهم لا يَجلسون في (مقاعد الانتظار) بل يستعدون في (معاقد الانطلاق)، حيث لا يَنُون عن الاستعداد ولا يتوانَون عن امتلاك مقاليد الجاهزية، إذ مع حسن ظنهم بالناس على المستوى الفكري فإنهم يفترضون أسوأ الاحتمالات على المستوى الفعلي !

إنهم يفقهون جيدا قوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ ...﴾ ويدركون تماماً أن كلمة قوة التي جاءت نكرة إنما تفيد العموم، حتى تستغرق كل مفردة تسهم في تعظيم موازين القوة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية !

تكبُّد:

لا تتربّع الشمس في (كبد) السماء إلا بعد أن (تَتكبّد) عناء السفر من أقصى المشرق، قاطعةً مسافات ضوئيةً هائلة !

والعجيب أن من البشر من يريد الحصول على (النجومية) دون عناء، ومن يحلم ببلوغ كوكب (الإشعاع) دون بذل المجهود المناسب، مع أن الإنسان وحده هو من قال الله عنه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، حيث يحتاج في بلوغ الأهداف إلى ركوب صَهَوات المَشاق وتَجشُّم عناء المغامرات !

***

قانونُ التدافُع

تَدافُعُ الأجيال:

يبدو من استنطاق سورة (الكهف) أن فتية الإيمان الذين فرّوا من مدينتهم بدينهم، وأوَوْا إلى الكهف المحظوظ بهم، وألقى الله عليهم النوم لمدة ٣٠٩ سنوات، أنهم لم يكونوا وحدهم !

فقد تَمكَّن دينُهم في تلك المدينة بعد رَدْح من الزمان، وصارت لأهله الغَلَبة والتمكين، وبعد تلك المدة الطويلة قام الفتية من نومهم، وهدى الله الناس للعثور عليهم، ليكتشفوا الفوارق الهائلة بينهم وبين ذلك المجتمع، ابتداءً من العملة، ومروراً بما لا يُحصى من الأفكار والرُّؤى، وصولاً إلى أرْكمة من الأعراف والعوائد والخبرات.

إنها فجوةُ ثلاثةِ قرون ونيف من السنين، نجح الزمن خلالها في إنتاج أجيال من الشباب المختلفين!

وبكرامة أخرى من الله كان يمكن أن يعيش أهل الكهف ليكملوا أعمارهم المتوسطة، لكن الله أراد أن يُرسل للعالم كله رسالة عملية بليغة، مفادها أن هناك فجوات تنشأ بين الأجيال، ينبغي مراعاتها من قبل علماء الفكر والاجتماع والنفس والسياسة.

وأنه كُلما طال الزمن بين جيلين وزادت مساحة المتغيرات؛ اتسعت الفجوة بينهما، ولا سيما إن لم توجد مؤسسات تتولّى تجسير العلاقة بين الثنائيات الفكرية والاجتماعية داخل المجتمع بطريقة محكمة، ومنها ثنائية الشباب والشيوخ!

ولمّا كان الفارق الزمني يزيد عن ثلاثة قرون؛ فلا بدّ أن الفَجَوات ستكون كبيرة بين فتية الكهف وفتية المدينة، وسيصعب ردْمها أو تجسيرها، مما سيؤدي إلى نشوء صراع بين الطرفين لا بُد أن ينتصر فيه الجديد وفق سُنَن الله ولكن بعد آماد من الزمن وتداعيات لا حدود لها!

ومن ثم سيتحوّل فتيةُ الكهف في أذهان الناس من أصوات هادية وقُدوات مُلهمة، إلى ماضٍ بغيض يسعى الجميع لإلحاقه بأسلافه، ولهذا أكرم الله هؤلاء الفتية مرة أخرى حينما اختارهم للحَاق بجَنابه والعيش في رحابه!

تَدافُعُ العُسْر واليُسْر:

إن الحياة مجموعة من التناقضات التي تتدافع وتتداخل فيما بينها، فلا بُدّ من تجاوُر الأفراح والأتراح وتعاقُب المَسرّات والمَضرّات، ولا بُدّ من تدافُع الأعسار والأيسار وتغايُر الآلام والآمال، ولا بُدّ بعد الانفجارات من انفراجات.

وفي كل الأحوال فإنّ هذه سُنّة الله الغالبة، ولكن لا يمكن لعُسر أن يغلب يُسْرين، ألم يقُل مالكُ الملكوت: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾؟!

العنايةُ بالبدايات:

في بدايات استقامة الجماعة المسلمة على عودها، وفي ظل التكالُب الشامل عليها من أعداء ألِداء؛ فإن معيّة الله تكون أشدّ حضوراً وعنايته تصير أوضح تأثيراً، إذ أن البداية تكون أصعب والعداوة أشدّ.

ولنا في غزوة بدر درس عظيم، فهي المعركة الوحيدة التي دخلها المسلمون وقد قرّر الله أنهم بخروجهم من المدينة لن يعودوا إلا بالعير والغنائم أو بالنصر المؤزّر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، بمعنى أن

الهزيمة المحتملة وفقاً للمنطق الشرعي الثابت لم تكن لها أي فُرصة للظهور في بدر، لأنها معركة تأسيسية للأمة.

وحتى لا يظن المسلمون أن النصر سُنة حتمية مهما فعلوا؛ فقد جاءت الهزيمة في أُحُد بعد فترة قصيرة من بدر، وذلك عندما حدث خللٌ بسيط في نظافة النفوس ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، وتنظيم الصفوف (نزول الرماة من جبل أحد)!

***

مُراعاةُ الفُروق

قبل العمل وبعده:

لا ينْفكّ المؤمن الحق عن طلب الرِّفعة وابتغاء المعالي، ولذلك فإنه يُشمّر قبل العمل عن ساعد الجد، فيتأبّط عزيمته ويَعقد إرادته، مستحضراً قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، وبعد أن يجاهد المشاق ويكابد المرارات، وحينما يصل إلى شواطئ الأسباب الممكنة وضفاف النجاحات النسبية، وحتى لا يتحسر لأنه لم يصل إلى الذروة العالية، فإنه يستحضر قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾، فلا تناقض إذاً ولا تباين بين النصين بل هو التكامل والتعاون.

الاجتهاد والإعذار:

ما برح القرآن يحثّ المسلم على البحث عن الحقيقة، وما فتئ يدعوه إلى الاجتهاد في تحرّي الصواب والتدقيق من أجل إصابة الهدف.

وكمثال على التوجُّه إلى القبلة فإنه تعالى يأمر بالتوجه إلى عين الكعبة، فيقول: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ...﴾ [البقرة: ١٥٠]، لكنه بعد بذل كل مستطاع واستفراغ كل وسع في محاولة التوجّه إلى عين القبلة يقول لهم تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ !

بين المثالية والواقعية:

ما قد يبدو للرائي أنه اختلاف في نصوص القرآن، يبدو للمتدبر أنه حكمة بالغة ولوحة متكاملة، حيث يراعي الاختلافُ الفروقَ الفردية بين المحسنين

وبين عامة المسلمين، وقد يرسم المثال في آية حتى تكون هدفا، ويراعي في أخرى الضعف البشري الذي ينكشف في الواقع حتى تكون رخصة.

ومن صور رسم القرآن للمثال ما ورد في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...﴾، بينما نراه يراعي الواقع حيث يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ومن ثم لا تَضَادَّ بين النّصين، حيث ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الوصول إلى المثال، وبعد أن يبذل كل مستطاع فإنه معذور مأجور وإن لم يصل إلى القمة المنشودة.

مسابقةُ الخيرات:

لقد وصف الله الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين لا يعرفون الشرك ولا يطمئنون إلى طاعاتهم، بل يظلون في خوف ووَجَل من عدم قبول أعمالهم، وصفهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فهم لا يسارعون إلى الخيرات بل يسارعون فيها؛ علامةً على أنهم في القلب منها ولم يغادروها أو يبتعدوا عنها طرفة عين، ووصل الحال بوصف سباقهم بأنه ليس مع أحد من أهل الخير، بل مع الخيرات ذاتها حتى إنهم ليسبقونها بدأبهم القوي وإخلاصهم الشديد!!

ومن المؤكد أن هؤلاء هم المحسنون الذين تبوّؤا الذُّرى العالية من الإيمان؛ حتى صاروا في قربهم من الله يعبدونه في محراب الحياة كأنهم يرونه !

***

نفَثاتٌ اليائسين

الوعدُ الرباني:

امتلأت سورة النور بالكثير من القناديل التي أضاءت جنباتها، وجعلتها مستحقةً بجدارة لعنوان (النور)، ومن ذلك قنديل الوعد الرباني الصريح بالاستخلاف والتمكين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا..﴾ [النور: ٥٥].

وبتأمل الآية عبر بصائر التدبر يتضح بجلاء كيف أضاءت أنوارُها مجاهل النفس البشرية التي تمتلئ بالمُحبطات، وتتعثّر بعوامل القنوط، وتتأثر بدعاة اليأس.

فقد امتلأت بأدوات عديدة تؤكد على تحقّق هذا الوعد، وتنقسم بين مؤكدات لفظية أهمها الفعل وَعَدَ، ومؤكدات حرفية أهمها اللام الذي تكرّر ثلاث مرات في مقامات الاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف إلى أمن !

وهذا يكشف لنا عن طبيعة النفوس البشرية، وكيف سبَر أغوارَها من خلَقها، وكيف أحكَم علاجها من أمرَها سبحانه وتعالى.

بين التفاؤل والتشاؤم:

تنعكس نفسية الإنسان على قراءاته ومرئياته، حتى قراءة القرآن تختلف من المتفائل إلى المتشائم، حيث أن النظر من زاوية التشاؤم يجذب من المشاهد ما يعزز سوء الظن بالناس والعكس صحيح.

ففي قضية إصلاح الزوجة مثلاً، سيلفت انتباه المتفائل وحسن الظن بالناس أن زوجة الطاغية فرعون كانت امرأةً شديدة الصلاح، أما المتشائم الذي يسيئ الظن بالناس فسيتوقف عند امرأتي نوح ولوط اللتين كفرتا بالله وهلكتا مع الهالكين، رغم أنهما زوجتان لنبيين!

كفرُ اليائسين:

إذا حلَّ اليأس بكائن أو كيان ما؛ انطفأ ضياؤه وانطمست بصيرته، وكفَّت سحائب أعماله عن الهطول بغيث الصالحات، فأقفرت الأرض وأجدبت الحياة!

ولذلك عدَّ القرآن اليأس كفراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، بل ووضع اليائس بجانب من يقتل نفسه في النار !

حَصْحَصةُ الحق:

عندما يتبيَّن الرُّشدُ من الغَيّ، ويتميّز الثّمينُ من الغَثّ؛ فإن الحق يُحَصْحص وأهله يظهرون على أهل الباطل !

لكن ذلك لا يتحقق ما لم يمتلك أهل الحق اليقين الكامل بأنهم على الحق، وما لم يعتلوا ناصية الفاعلية في انتمائهم له، وفي الدعوة إليه والمجاهدة في سبيله.

***

بَراهينُ الإيمان

ألْسِنةُ البَراهين:

من كان يؤمن بصدق دعاواه وقوة حجته، فينبغي أن يلجأ إلى طرح البراهين التي تمنحها الوثوقية؛ لأنها الألْسنةُ التي تشهد بصدقه وصوابية دعواه، ولذلك لقّن تعالى نبيَّه محمدا ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فالصادق لا يتوانى عن تقديم الأدلة والبراهين التي تؤيد ما يعتنقه من العقائد وما يدعو إليه من الأفكار.

الإيمان البُرْهاني:

أدّت تضحيات فتيةُ الكهف إلى اعتناق قومهم الإسلام بعد أن أووا إلى الكهف قرونا ثلاثة، ثم جاء الجيل الذي أوى إلى الإيمان نتيجة التقليد والمتابعة، فكان من أهداف العثور على الفتية بعد ثلاثة قرون شمسية نقل ذلك الإيمان من خانة التقليد إلى ساحة الإيمان البرهاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ...﴾، وتأمّلوا ملياً كلمة: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ حتى تدركوا قيمة هذه النَّقْلة الضخمة، فالعلم القائم على الحجج والبراهين غير التقليد القائم على العواطف والسماع والمحاكاة!

ومن المؤكد أن الإيمان البرهاني أقوى من الإيمان التقليدي، وأن فوائده أعظم وثماره أوفر وأنضج.

ارتقاءُ مرتبةِ (أعلم):

من أجل زرع اليقين بوقوع البعث أمات الله رجلاً صالحاً مائة عام - يقال إنه عُزير وإنه نبي - ثم بعثه هو وحماره وأراه كيفية إنشاز العظام وكسوتها باللحم.

وعندما رأى مشهد الحمار وهو يعود إلى الحياة رأْيَ العين قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

إنه لم يُعلن إيمانه عندما رأى هذه الآية؛ لأنه مؤمن في الأصل، لكن إيمانه الآن صار متسلحاً بالبرهان المادي الذي لا يقبل أدنى شك، بعد أن رأى برهان البعث عياناً، ولذلك قال: ﴿أَعْلَمُ﴾!

وبالتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق يمكن للمرء أن يصل إلى ناصية العلم اليقيني، بمعنى أن الإسلام يجعل من التفكر جسرا للعبور من المشاهدة إلى الشهود، حتى أن المؤمن ليعبد الله كأنه يراه رأي العين. ومن هنا فقد أطلق القرآن مصطلح (آيات) على مكونات الكون وعلى مكونات الأنفس، والآيات في لغة العرب هي العلامات البينات، وكأن هذه الآيات معالم واضحة على طريق الهداية الموصلة إلى الحق.

الجهلُ بالبراهين:

إن مشكلة الناس الذين لم يذوقوا طعم الإيمان هي في الأساس مشكلة جهل، حيث لا يعلمون حقيقة الإيمان، ولم يستطيعوا النفاذ من آيات عالم الشهادة إلى آيات عالم الغيب، إذ يتوقفون عند سطح هذه الآيات ويتعلقون بظواهرها، قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

ومن ثم فإن الذين يدركون حقيقة وعد الله الغيبي هم الذين يعلمون حقيقة الإيمان بالله وباليوم الآخر، مستهدين بآيات عالم الشهادة وغير متوقفين عند ظواهرها.

العلمُ سبيلُ معرفةِ الحق:

لا يمكن أن يسلك سبيل الحق من لم يؤتَوا قدرا من العلم، وعلى سبيل المثال فإن الإيمان بأن القرآن كلام الله هو ثمرة العلم المادي المتوزع بين آيات الأنفس وآيات الآفاق، قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]

ولذلك فقد وجدنا أعلاما كبارا في الفيزياء والكيمياء وعلوم الكون والفلك والبحار والطب والأحياء ينتقلون إلى الإسلام من المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية رغم تخلف المسلمين الماحق وتقصيرهم الفاضح في الدعوة إليه، انتقلوا إليه من خلال إدراكهم العميق لمدى تطابق الرؤية القرآنية مع أدق ما وصلت إليه العلوم، وهذا ما وعد الله بتحقيقه في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

الطريقُ إلى اليقين:

توضح آيات القرآن أن طريق الوصول إلى اليقين الكامل والقطع الجازم هو آيات الله في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٤، ٥]، وبذلك فقط يتحقق الإيمان البرهاني الذي لا تزعزعه رياحُ الفتن العواتي ولا تخلخله أعاصير الشبهات المتلاحقة؛ لأنه أقوى من الحديد المسلح وأثبت من الجبال الرّواسي.

***

غَوائلُ الهَوَى

آفةُ الهوى:

لا يزال الهوى آفةً خطيرة على الإنسان، إذ قد يتسبب في هلاك المرء؛ حيث يمحق العلم ويلغي وظيفته الإرشادية، ويختم على السمع، ويُغشي البصر، ومن ثم يفقد المرء بوصلة الهداية وينقاد خلف أوامر النفس التُّرابية.

ولهذا لفتَ الله نظر النبي ﷺ إلى هذا الصنف العجيب من الناس، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

طريقُ الهوى:

يمثل الهوى طريقاً مغايراً تماماً لسبيل الله، ولهذا قال تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وما دام سبيل الله يوصل إلى الجنة فإن طريق الهوى سالكٌ إلى النار، ولذلك فقد أكد القرآن على أن الجنة مأوَى من خاف مقام ربه ونهى نفسه عن هواها: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ويمكن القول إن الهوى طريق الهوان، وكيف لا يكون كذلك وهو سبيل الغواية في الدنيا وسبب الهلاك الأبدي في الآخرة؟!

مصَدُّ الهوى:

إن أكبر مانع من موانع الاستجابة للرسول ﷺ في دعوته لحياة القلوب والأرواح هو الأهواء التي تزيغ بأصحابها عن الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

ونلاحظ هنا فعل الأمر (فاعلم) وأداة الحصر (إنما)، حتى يفيد اليقين بأن الهوى هو من يصدّ الشخص عن الاستجابة، مما يشي بخطورة الهوى الذي ما يزال يتضخم حتى يصبح إلهاً مطاعاً كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ...﴾ [الجاثية: ٢٣].

بوصلةُ العلم:

إن اتسام المسلم بالحساسية الإيمانية ضرورة لاستقامته في الصراط واجتراحه للصالحات، لكن ذلك لا يتحقق على الوجه الأمثل بدون اعتلاء ناصية المعرفة وامتلاك بوصلة العلم النافع، ولذلك ابتدأت النبوة بالأمر التأسيسي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وابتدأت العقيدة بالأمر التوجيهي: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

والعلم هو البوصلة الحاسمة في التفريق بين صراط الهداية الربانية الرافعة إلى الفردوس المفقود وبين سُبل الغواية ذات الصلة بالأهواء التي تهوي بأصحابها في دركات الجحيم!

الضّلالُ المُزدوج:

تكمن خطورة الهوى في أنه لا يُهلك صاحبه فحسب بل يجعله مطيةً لإضلال غيره، والمصيبة أن كثيرين يقومون بذلك من غير قصد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فإن الهوى لا يزين لهؤلاء ضلالهم الذاتي فقط بل يدفعهم نحو معانقة الضلال المتعدي أي بذل الجهود واستفراغ الوسع وربما التضحية بالمال والنفس من أجل إضلال غيرهم.

***

مَحاسنُ الاستقامة

ثيابُ الاستقامة:

إذا أردتَ أن تَرفُل في ثياب الاستقامة الساحرة؛ فعليك باحتساء أكواب العلم وارتشاف كؤوس الإخلاص، ألا ترى أن الله عندما أرشد المؤمنين إلى دعاء الاستقامة الذي يتلونه في كل ركعة من صلواتهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، بيّن لهم فوراً وأكد على أن صراط الاستقامة هو العامر بالعلم والزاخر بالإخلاص، وذلك بقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وأي نعمة أكبر من تحصيل العلم واكتناز الإخلاص؟

وأوضح الأمر أكثر بأن حدّد المُنعَم عليهم من خلال تحديد نقضائهم، فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾،وهم الذين علموا الحق لكنهم اتبعوا أهواءهم نتيجة فساد قلوبهم، وقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، وهم الذين أخلصوا دواخلهم ولكن بوصلة العلم خذلتهم؛ نتيجة وفرة جهلهم وقلة علمهم!

جارحةُ اللسان:

من أخطر جوارح الإنسان التي تتفلَّت على رقابة التقوى جارحةُ اللسان، حيث يمكن لجوانح المرء أن تكون عامرةً بزاد التقوى، ومع ذلك قد يَصدر منه قول غير سديد يهوي به في النار، ولهذا قَرَن الله القول السديد بالتقوى رغم شموليتها، وذلك في الأمر الرباني بهما، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وقد أوجب الله الجزاء على الأمْرين فقال: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٧١].

إنّ المرء قد يكون مُتّقياً لله ومع ذلك لا يَصلُح عمله، إذ قد يستحيل قوله إلى معول هدم في صرح عمله، إن لم يكن سديداً!

المُحمَّدان:

من يقرأ أحاديث المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه؛ سيجد أنه في مرات عديدة يشهد لنفسه بالنبوة والرسالة، ومن يتمعّن في هذه النصوص سيرى أنها تأتي في سياق مخاطبته لله تعالى، وكأنه هنا يُجدّد العهد على القيام بأعباء النبوة وعلى التطبيق التام لتعاليم الرسالة التي يدعو لها، بمعنى أنه يقوم بتجسير المسافة بين الأقوال والأعمال، حيث يُجدد محمد الإنسان الالتزام بتطبيق ما يدعو إليه محمد الرسول!

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وفي هذا الشِّق فإنه يتقاسم معهم البشرية بكل ما فيها من مطالب وطبائع، والفرق بينه وبينهم: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، لكن محمداً البشري يتساوى معهم أيضاً في وجوب الإيمان بالوحي الذي تنزّل على الرسول محمد!

صعوبةُ الاستقامة:

إن الاستقامة وفق متطلبات الإيمان، بحيث تنفعل المشاعر الداخلية بالشعائر التي تؤديها الأعضاء الخارجية، وتلتزم الشعاراتُ المرفوعة بالشرائع المفروضة، لا شك أنها مسألة صعبة المنال، ولا تتحقق بمجرد اعتناق الإيمان والتعبير عنه باللسان.

ولذلك فصَل المولى عزّ وجل بين ادعاء الإيمان وبين استقامة الأعمال بحرف العطف(ثم) الذي يحتاج إلى وقت ولا يفيد الفورية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ...﴾.

وهذا يؤكد أن الاستقامة صعودٌ وسموق بعيدا عن جواذب الأرض وطبائع الطين، مما يتطلب صبراً ومصابرة ويحتاج مجاهدةً ومرابطة في ثغور التزكّي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، والتزكي عملية شاقة يشترك فيها العقل والقلب والروح والجسم ووردت على وزن تفعّل الذي يفيد الدأب والتعب ويحمل معنى العلو والارتفاع، وبذلك فقط يعتلي المؤمن نواصي التقوى، حيث لا يفقده الله عند أوامره ولا يجده عند زواجره!

وربما أشبهت هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، كأن الهداية التي تأتي لاحقاً هي ثمرة الصبر على مرارة التوبة، ونتيجة المصابرة في شُعَب الإيمان، وخاتمة المرابطة في ثغور الأعمال الصالحة.

اعتناقُ الإسلام:

إن البشرية لن تُقبل على اعتناق الإسلام بكثافة حتى ترى المسلمين كافة يطبقون تعاليمه ويبرزون مكارمه ويجسدون فضائله في سائر شُعَبه النظرية والعملية، حيث سيكونون حينئذٍ إعلانات راقية للإسلام، ولهذا خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ...﴾، وتأمّلوا طويلاً مصطلح: (ادْخلوا) رغم أنه سمّاهم بالمؤمنين أي الذين نبذوا الكفر باعتناقهم من حيث المبدأ لعقيدة الإيمان بالله، بمعنى أنه يدعوهم لاعتناق الإسلام عمليا، حتى لا تقوم الأفعال بتكذيب الأقوال ولا تتولى الممارسات السوداء تشويه التعاليم الناصعة.

***

عدالةُ الجزاء

صراطُ الجحيم:

لقد أوجد الله الصراط المستقيم الذي من سار عليه وجَد فوزه وفلاحه، وجعل القرآن آيات بينات تهدي إلى الاستقامة على هذا الصراط، وبعث الأنبياء دعاةً وهُداةً إليه، بل وجعل من ضمن وظائف الملائكة دفْع الناس نحْو وسطه.

ولأن الجزاء من جنس العمل فإن الذين لم يستجيبوا لدفع الملائكة ولم يتجهوا نحو صراط الاستقامة في الدنيا بإرادتهم؛ سيذهبون مع الملائكة مكرَهين إلى صراط الجحيم، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وتأمّل بعَيْن التدبر والتبصر جملة: (فاهدوهم)، لترى مقدار التبكيت والسخرية من الذين رفضوا الهداية في الدنيا!!

الصدقُ الشامل:

إذا تمحّض الإنسان للصدق في مبدإه ومنتهاه أو في مدخله ومخرجه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ...﴾ [الإسراء: ٨٠]، وإذا صار لسانُه صدوقاً كما قال الخليل إبراهيم: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾؛ فإن لهؤلاء عند ربهم أمرين:

- قدَم صدق، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهو الثبات على الحق مهما تكاثفت الشبهات والشهوات والاستقامة على الطريق مهما قويت العقبات واشتد الأعداء.

- مقْعد صدق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، وهو الجزاء المناسب للتقوى التي تجعل الإنسان صادقاً في مَخْبره ومنظره، متكاملاً في قلبه وقالبه، مخلصاً في أقواله وأفعاله.

أغلالُ الذُّل:

هناك صنفٌ من البشر استمْرَؤوا الرِّق واسْتلذّوا العبودية؛ حتى أنهم ليجعلون من أغلال الرِّق قلائد يُزيّنون بها أعناقهم!

وهؤلاء الذين اختاروا العبودية للبشر وتزينوا بها؛ سيكونون ممن قال الله عنهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

فقد انقادوا للكُبراء وتقلّدوا أعرافَ الآباء، وجعلوا من العوائد الباطلة سدوداً حالت بينهم وبين رؤية الحق واستبصار الواقع !

لقد اعتقدوا أنهم بهذا التقليد الأعمى قد نصبوا أعناقهم ورفعوا رؤوسهم؛ ولذلك فإن أعناقهم تُغَلّ إلى أذقانهم فهم مُقمحون، أي رافعين رؤوسهم المربوطة مع غضّ أبصارهم من الذل والفضيحة والهوان !

عيونُ الرزق:

من جعل الشرع نصبَ (عينيه) مُتقياً ربّه في إقباله وإدباره، فتح الله له (عيون) السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، ذلك الماء الذي يمثل أصل الحياة كلها في هذا الوجود، حيث تذرف عيون السماءُ دموعَ المطر فرحا بطاعته لأوامر ربه، وتُفجّر الأرضُ عيون الحياة احتفاء بانسجامه مع هذا الكون الذي ما برح يُسبح بحمد خالقه، وبلغ من هذا الأمر أن الله أسال عينَ القطر (النحاس) لنبيه سليمان عليه السلام الذي انسلك مع

منظومة الوجود في عبادة ضارعة لله في شتى أنحاء الحياة، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ...﴾.

وبتقوى الله الشاملة في محراب الكون؛ تنبجس عيون الرزق من جبال الحياة الصماء وتتفجّر عيون المِنَح من صخور المِحَن!

***

مَطايا الدعوة

مطيةُ القولِ البليغ:

من واجب الداعية أن يذهب إلى المدعوّين، ولكي يدلف إلى قلوبهم وعقولهم عليه أن يركب عدداً من المطايا الموصلة إليهم في الوقت المناسب، ومنها مطية القول البليغ، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، ذلك أن فطرة الإنسان مجبولة على التأثر بالكلام الفصيح، والانفعال بالقول البليغ، ولا سيما عندما يترافق ذلك مع الإعراض عن الزّلّات والصبر على الصّدّ، واستخدام المواعظ التي تخترق القلوب وتتسلل إلى الأفئدة، بجانب استخدام الدعوة الانفرادية بعيداً عن أعين الناس وعن تأثيرات ثقافة القطيع، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فهو البلاغ الذي يتوسل بالفصاحة الآسرة للقلوب والعقول، بحيث يوضح ما يجب بيانه ولا يترك مجالاً للغموض أو الالتباس وبأسلوب مثير وجاذب يجمع بين الإمتاع والإقناع.

ولوضوح هذا الأمر جيدا في ذهن كليم الله موسى، ولأنه كان يعاني من مشكلة في النطق فقد قال لربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٢، ١٣]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

ولأهمية هذا الأمر في المخيال الجماهيري الذي يطفح بالعاطفية؛ فقد استغل فرعون هذه اللثغة كثغرة تسلّل منها للتشويش على عقول العوام فقال بلهجة

الواثق من نفسه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وبالطبع فإن السؤال الفرعوني هنا استنكاري لا استفهامي.

ولشعور موسى بثقل هذا الأمر عليه، فقد دعا الله سبحانه فقال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، ولأن الأنبياء مستجابو الدعوة فمن المرجح أن تلك المشكلة في لسانه قد ذهبت.

التبيينُ قبل الوعظ:

أوضح الله أن كتابه يحتوي على آيات بينات وقصص زاخرة بالدروس والعبر، وعلى مواعظ حسنة ترشد الناس إلى ما يجب أن يفعلوه وما لا ينبغي أن يقوموا به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

ونستنبط من هذا النص سبقَ التبيين والتعليم والتوضيح للمواعظ الزاخرة بثمار الأوامر وعواقب الزواجر، والمتسلحة بأساليب الترغيب وأنواع الترهيب، أي أن مخاطبة العقل مطلوبة قبل مناجاة القلب؛ لأن الانفعال القلبي من دون وعي عقلي قد يصنع فاعلية سلبية كما فعل الخوارج الذين صاروا معاول هدم في صروح الأمة، حيث كانوا يبكون عند سماعهم للقرآن حتى يخرّ كثيرون منهم مغشيا عليهم، لكن انعدام الفهم السليم والناتج عن أن قراءة القرآن وفق المنهج الذي انسلكوا فيه لم تكن تجاوز حناجرهم؛ قد أدى إلى ارتباكهم وارتكابهم فظاعات كبيرة في حق المسلمين وهم يعتقدون أنهم أفضل وأتقى من طبقوا الإسلام في حياتهم من جميع المسلمين، هذا إن لم يندفعوا لتكفيرهم بسبب ارتكاب كبيرة أو حتى صغيرة عند بعض فرقهم أو حتى بالظنة والتهمة كما فعلوا مع بعض الصحابة وعلى رأسهم الراشدي الرابع علي بن أبي طالب!

البعدُ عن التعيين والتعميم:

عندما نقرأ أسباب النزول نجد أن كثيراً من الآيات تتنزّل في شأن عدد من الناس، سواء كانوا كفاراً ومنافقين أو عصاة مؤمنين، لكن الصياغة ظلت عامة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، ونلاحظ هنا أنه عبّر عنهم بالاسم الموصول (الذين) وسمّاهم (عصبة) ونسبهم إلى جماعة المؤمنين.

وفي ذات الوقت فإن عدم التعيين ليس مبرراً للانتقال إلى الطرف الآخر وهو التعميم، فقد أخبرنا القرآن أن اليهود أشد عداوة للذين آمنوا بصورة عامة، ومع ذلك لم يُعمم هذا الحكم على كل الأفراد في إطار اليهود أو بني إسرائيل، بل كثيرا ما ردد في كثير من القضايا والموضوعات: ﴿مِّنْهُم...ومِّنكُمْ﴾، مؤكداً بصورة قطعية أنهم: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾[1]

إن البشر ليسوا آلات جامدة أنتجها مصنع واحد بنفس القوالب الجامدة، وليسوا (بَيْضاً) حتى نضعهم في (سلّة واحدة)، بل هم أصحاب أفهام وأفكار ومستويات عقلية متعددة، وذوو ميول ومشاعر ونفسيات مختلفة، يتفاوتون في كل شيء، ومن غير الجائز وضعهم في قالب واحد أو نظمهم في معسكر واحد!

الدعوةُ السلوكية:

يبدو أن قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تؤسس للدخول على المدعوّين من أبواب متفرقة، وهي مرتبة حسب الأولوية، ولأن الحكمة هي وضع الشيء في محله، فإنها تشير إلى وجوب السلوك القويم والمعاملة الحسنة، ثم تأتي الموعظة الحسنة

---

(١) انظر كتابنا: التفكير الموضوعي في الإسلام، ضمن سلسلة كتب الأمة الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، العدد ١٣٧.

بإظهار الحرص على المدعو والخوف عليه من عواقب السوء، والأسلوب الثالث هو الجدال مع المعاندين بالأسلوب الذي يحقق الهدف بأفضل كفاءة ممكنة: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

تميُّزُ الدعاة:

الأنبياء هم الكتيبة المتقدمة من المصلحين الاجتماعيين والدعاة إلى الله، ومن ثم فإنهم قدوات طيبة وأُسُوات حسنة للدعاة في كل زمان ومكان، ولقد كانوا جميعاً شديدي التميز باعتراف أقوامهم، وعلى سبيل المثال لنقرأ ما قالت ثمود لصالح على سبيل التأكيد: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، أي كنا نؤمل فيك أشياء كثيرة نظراً لما رأوا فيه من تميز شديد في شخصياتهم، فقد كانوا جميعا أصحاب مواهب رائعة وخلال حسنة برزت في سماء الواقع كما تظهر الشمس في كبد السماء.

***

غَوائلُ البَاغين

الخاسرون الأخسرون:

الظلم قيمةٌ لا تتبعّض ومنظومة من التجاوزات الخطيرة لا تتجزّأ، إذ تتوزع بين حقوق الله وحقوق الناس، وكذا بين حقوق الأرض والبيئة وحقوق الكائنات كافة.

وأظلم الظلم هو افتراء الكذب على الله، من خلال تحريف آياته ومصادرة آلائه على خلْقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ١٨-٢٢].

ونلاحظ كيف تَصبُّ هذه الآيات عليهم اللعنات، وكيف تُقبّحُ أعمالهم السيئة وتتوعدهم بالعذاب المضاعف، وكيف تصفهم بأنهم خسروا أنفسهم في الدنيا وصاروا أخسرين في الآخرة، مع استخدام ضمير الفصل: (أولئك) للتعبير عن خسرانهم البعيد، أي أنهم أوغلوا في الخسارة حتى تفوقوا على كل الخاسرين!

العضُّ على اليدين:

إن استعدادات الظلم حاضرة في تكوين الإنسان الطيني، وإذا توافرت الظروف المناسبة فإنه ينبجس من القلوب المتحجرة، والصديق هو العَصَى التي يضرب بها صخر الشخصية فتنفجر منها عيون الظلم والبغي!

وعليه فإن الخليل الفاسد سيكون عامل ندامة كبيرة يوم لا ينفع الندم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

وقد قال بعض المفسرين إنه يَعُضّ أصابع الندم من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، ولكن لا حاجة لصرف الكلمة عن معناها الظاهر إلا بقرينة، ولقد قال القرآن: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ وليس أصابعه، وكأنه يريد القول بأن الظالم من شدة التحسر على نفسه يعاقب اليدين اللتين شبّكهما في يَدَيْ من سبقه إلى الظلم؛ بدلالة الآية التي بعدها، فهي تقول على لسانه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، ذلك الخليل الذي أضله عن الذكر؛ فانفجرت فيه مكامنُ الظلم وسالت في أودية البغي والطغيان!

والظالم الذي يسطو على حقوق الآخرين ويعتدي على حرماتهم، فيغتصب أعراضهم ويضرب أجسادهم ويسلب أموالهم، لا بد أن وسيلته الأولى في ذلك هي اليَدان، ولذلك فإنه يعضّهما وهو يجر أذيال الحسرة والخيبة والوبال!

ظلمُ الأرض:

لا شك أن الظلم يمحق الرزق وأن الغصْب يمحو البركة، وعندما تَتسيّد قيمةُ الظلم في مجتمع ما؛ فإن كلّ شيء يناله نصيبٌ من هذا الظلم، حتى أن الأرض نفسها تصبح ظالمة!

ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي ولم تهضم من ثمارها شيئاً!

وبالمناسبة هناك أرقام صادرة عن منظمة الزراعة العالمية (الفاو) تتحدث عن أن إنتاجية الفدّان العربي من المحاصيل الزراعية تساوي ثُلث إنتاج الفدان الأوروبي ورُبْع الفدان الأمريكي، ولا شك أن الظلم والتخلف العلمي حاضران في كتابة هذه النتيجة العجيبة!

تحريمُ الحرمان:

حرمَّ الله على بني إسرائيل الكثير من الطيبات بظلمهم، كما جاء في الآية ١٦٠ من سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾. والتطرف شكل من أشكال الظلم، وهو يفضي في كثير من الأحيان إلى تحريم بعض ما أحل الله وإلى تضييق دائرة الطيبات الواسعة وتقييد الكثير من التحركات في ساحات الحياة مع أن الأصل فيها هو الإباحة، والتحريم أو التقييد هو الاستثناء !

وبحكم أن المحرّمات أصبحت معلومة وثابتة في الإسلام؛ فإن المسلمين إذا ارتكبوا ما اقترفه بنو إسرائيل؛ سيحرم الله عليهم بعض الطيبات تحريم حرمان، وذلك بتسليط الفقر وحلول الفاقة، وبشيوع الطمع والهلع وندرة القناعة والبركة!

***

مُعادلاتُ الثبات والتغيُّر

معادلةُ الثوابت والمتغيرات:

أوضح القرآن أن للفلاح الدنيوي والأخروي معادلةً تمزج الثوابت بالمتغيرات في قالب الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، واتقاء الله هنا متصل بالثوابت؛ بحيث لا يَجدك الله عند المحارم ولا يفقدك عند الفرائض، ذلك أنها مما عُلم من الدين بالضرورة، والتي لا تهاون فيها ولا تسامح؛ لأنها من الشُّعَب التي يتثلم الإيمان بفقدها، وشُعَب الإيمان هي الطاعات التي وعد الله القائمين بها بولوج الجنة، ولا شك أن الجنوح عنها يرمي بالإنسان في منزلقات الكبائر، والكبائر هي الذنوب التي توعد الله مقترفيها بدخول النار !

أما ابتغاءُ الوسائل المُوصلة إليه تعالى في العبودية الكونية؛ فهو عنوان الانهماك في ابتكار الآليات المُحقِّقة لمرضات الله، وهو الذي جعل عمارة الأرض مضموناً لخلافته وجوهراً لعبادته.

إرجاع الجزئيات إلى الكُلِّيات:

ومن الآيات التي أبرزت مثالاً عملياً في الجمع بين الثوابت والمتغيرات قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ .....﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فقد أعاد المولى عزَّ وجَلّ النفقة، وهي مسألة فرعية، إلى قاعدة التكليف على قدر السعة وهي ثابتة، بما في ذلك من رعاية لقاعدة العدل في الحقوق والواجبات، وذلك بمراعاة الاختلافات النسبية بين الحالات.

درْسٌ من الطبيعة:

يمكن القول بأن الإنسان يعيش بين(سماء الدين) و(أرض التدين)، إذ تتجسّد في السماء الثوابتُ الكُلية التي تنزل بها الوحي، وفي الأرض تنساب المتغيرات الجزئية التي يجتهد فيها العقل.

ومن الآيات التي يمكن الاستفادة منها في هذا السياق بصورة غير مباشرة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزّمر: ٢١]، فإن ماء السماء واحد لكنه عندما يتنزّل نحو الناس يصبح ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾، هذه الينابيع تتأثر بطبيعة التربة التي تنسلك فيها.

ولأنه هو تعالى من سلكه في الأرض، كما فعل في إنزال الوحي، فإن الاجتهاد يصبح سائغا ويصير التعدد جائزا، كما تتعدد ينابيع الماء وتتنوع خصائصها رغم انتمائها في الأصل إلى ذات الماء المتنزل من السحاب، وبدون هذا التعدد فإن الحياة ستفقد تنوعها الجميل وثراءها السابغ.

وربما كانت الفاصلة القرآنية مؤكدةً على هذا المعنى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فإن أصحاب الألباب هم من يمتلكون الاستعداد والقدرة على الاستفادة من الأمثال، سواء في الجوانب المادية أو المعنوية.

بين القَلَق والسكينة:

عندما تنْسكب سحائبُ القرآن على عقل المؤمن ينبغي أن تثير قلقه التدبري لفهم النص أولاً ثم لفهم آيات الأنفس والآفاق الواردة في ثناياه، كما قال تعالى

على سبيل الحض والتحريض: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وهذا الأسلوب أشد بلاغة من الأمر.

ولكن عندما تَهطل هذه الآيات على القلب فينبغي أن يَسكُن إليها ويطمئن بها، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾.

إذاً الذكر بمعنييه العام والخاص ينبغي أن نجعل منه أداةً لقلق العقل ولسكينة القلب في آن واحد، ولا بد أن يقود قلقُ العقل وطمأنينةُ القلب المؤمنَ إلى اليقين المنشود؛ لأن طمأنينة القلب هي عنوان الثوابت، بينما يخص قلق العقل على إبداع ما هو أنفع في مجال المتغيرات، ولا سيما في دائرة الوسائل والأساليب.

***

تَزاوُجُ الثُّنائيات

بين المَتاع والمَعاد:

أوضَح القرآن أن الكائن البشري مخلوقٌ مركّبٌ من ثنائية التراب والروح، وقرّر سبحانه وتعالى منح كل جانب زاده المناسب، وبيَّن أن سعادة الإنسان وفلاحه يأتيان كثمرة للجَمْع المُتساوق بين مفردات المتاع الدنيوي ومطالب المعاد الأخروي؛ وذلك بتغذية الجانب المادي بحاجاته من أكل وشرب ولبس وسكن وجنس ودواء، وتزويد الروح بمتطلباته من صلاة وصيام وحج وفكر وذكر.

ومن الآيات التي رتّبت الفلاح على الأمْرين معاً قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فالفلاح هو عاقبة الدأب في ابتغاء الرزق والمداومة على ممارسة الذكر.

وإمعاناً من القرآن في إزالة وهْم التعارض بين داري الدنيا والأخرى، فقد استعمل جملة: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، في الحض على طلب المال، الذي هو عماد الدنيا وبهجة النفوس، وبهذا يتعانق ابتغاءُ فضل الله مع ممارسة ذكر الله في منظومة العبادة الإسلامية، ما دام الدافع هو الاستجابة لأمر الله والمقصد هو تحقيق مرضاة الله والفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة.

ثنائيةُ الاجتهاد والجهاد:

من المؤكد أن الرُّقي الحضاري ثمرةٌ للتضافر الكامل بين قيمتي الاجتهاد والجهاد.

فالاجتهاد هو الذي يستفرغ طاقة المَلَكات العقلية في فهم الهداية الرحمانية وفي البحث عن الحقائق واكتشاف الغوامض، وفي ابتكار الوسائل وتطوير الأساليب على أكمل وجه ممكن في كل زمن بحسبه.

والجهاد هو مجموعة الأعمال التي تبعث طاقات الإنسان الشاملة وترفعها من (ثَرَى الكُمون) إلى (ذُرَى الكمال)، ثم تتجه نحو نقل طاقات الكون المخبوءة إلى ساحات عمارة الأرض وصناعة الحياة، وعبر هذا التزاوج بين الاجتهاد والجهاد يتم إرضاء الحق وخدمة الخلق.

وقد جمع الله الاجتهاد والجهاد ورتّب عليهما الفلاح في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، فإنّ ابتغاء الوسيلة الموصلة إلى نيل رضى الله هو جوهر الاجتهاد، أما الجهاد فهو واضح باللفظ، وقد مهّد للأمرين بالدعوة إلى التقوى، لأن كل جهد عقلي أو عضلي يُبذل بعيداً عن منهج التقوى قد يؤدي إلى الانتقام من الإنسان، وإلى تسويد حياته بالمصائب والهزائم بدلاً من تسويد صفحاته بالخيرات والمُنجزات!

امْتزاجُ العقل والقلب:

يلاحظ متدبرُ القرآن بوضوح أن آيات القرآن لوحة متكاملة في مبانيها ومعانيها، وكذا في ما تشتمل عليه من كمال وجلال، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾.

وانطلاقاً من هذه الرؤية سنجد امتزاجاً قرآنياً بين العقل والقلب، حيث لا يُصيب المؤمن الحق جفافُ العقل، ولا تقوده العواطفُ والانفعالات في دروب الحياة.

ومن الآيات التي جسَّدت هذا التزاوج إلى حدّ الدمج الكامل، قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، ويبدو أن

في نسبة التعقّل إلى القلوب دعوة غير مباشرة إلى مزْج الأفكار بالمشاعر، وخلْط الرؤى بالعواطف، بحيث يصبح المؤمن صاحب تفكير خاشع وخضوع مُتدبّر، بحيث لا تصير منتجات العقل جامدة مثل مخرجات الحاسوب، ولا تصير انفعالات القلب منفلتة من كل منطق ومصلحة !

إرادةُ الإنسان ومشيئة الله:

من المعلوم أن الهداية القرآنية عملةٌ نفيسة ذات وجهين، وهما: أسباب الإنسان وتوفيق الرحمن؛ إذ يوجد تفاعلٌ كامل بين إرادة الإنسان المتسلحة بالأسباب وبين مشيئة الله الموجِدة للنتائج.

ومن الآيات الجامعة بين هذين الوَجْهين قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

وأتمنّى من القارئ الكريم أن يتأمل هذه الآيات بشيء من التدبر؛ وسيلاحظ بجلاء مدى التكامل بين وجْهي هذه الحقيقة التي تُنتج الأفعال البشرية وتُثمر التغيير في هذه الأرض، فإن مشيئة الله غالبة لكن عدله مطلق، ولو شاء الله لرفع عالم بني إسرائيل بالآيات التي أعطاه إياها، لكن عدله قضى بأن تكون النتائج التي يخلقها من جنس المقدمات التي يجترحها الإنسان، ولأن ذلك الرجل لم يجترح التزاما بآيات الله فلم يستحق الرفع؛ حيث انسلخ من آيات الله ففقد درعه الواقي من الشيطان، ونجحت جهود الشيطان في جعْله من الغاوين، ثم إنه سقط في هاوية أخرى حينما أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكأنه كلب يلهث

وراء النزوات والغرائز، فاستحق ذلك المسخ المعنوي والعقوبة الإلهية، وصار مضرب المثل لعلماء السوء الذين يقدمون أهواءهم على تعاليم ربهم.

القلوبُ والقوالب:

إن تطهير الجوانح من الأوشاب والآثام مقدم على تطهير الجوارح من الأقذار والنجاسات؛ ولذلك قدّم الله تعالى التوبة على التطهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، ذلك أن أوضار القلوب متعدية بينما أوزار القوالب قد تكون لازمة.

***

فَوَاحِشُ الشُّرور

تحريمُ الفواحش والخبائث:

لم يُحرّم الإسلام إلا ما فيه ضرر قطعي وقُبح واضح، ولم يَحظر إلا ما أنكرته الفِطَر السَّوية والطبائع السليمة، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بطريقة خفية في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾، فعندما قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي أنه كان فاحشة مبغوضة قبل تحريمه، حيث أدّى الفُحش إلى تحريمه ولم يؤدِ التحريم إلى تفحيشه !

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾، فإن تعريف ما أحل الشرع بالطيبات يشير إلى أنها كانت طيبات قبل صدور حكم الحِل، وتسمية المحرمات بالخبائث يشير إلى أنها كانت خبائث قبل التّحريم، وهذا ما تؤيده حقائق العلم، فلم يثبت أي ضرر في ما أحله القرآن ولم يثبت أي نفع في ما حرمه القرآن، بل قد تضافرت الأبحاث والدراسات على تأكيد أضرار المحرمات كالربا والخمر والزنا وأكل لحوم الميتة والخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما بقي مما أكل السبع!

كراهةُ السيئات:

لا يختلف مسلمان حول أن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لجلْب المنافع ودفع المضار.

وبنَصّ القرآن فإن كل ما هو حسَن محبوبٌ عند الله، وكل ما هو سيء هو مبغوض عنده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾، أي كل ما كان سيئاً عند أصحاب الفطر السليمة والطبائع السوية فهو مكروه عند الله مبغوض.

فحْشاءُ البخل:

من المؤكد أن البخل عن إعطاء الفقراء حقوقهم وعن بذل المعروف لمستحقيه، من الفواحش الكبيرة داخل أي مجتمع؛ لأن هذا الخلل يسهم في إشاعة الفقر وتعريض المسافة بين الفقراء والأغنياء مما يسهم في انتشار الفاحشة بمعناها الضيق، ولذلك سمى الله البخل فحشاء في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فالفحشاء هنا هي البخل كما ذهب إلى ذلك جميع المفسرين وفقاً للإمام ابن القيم في(التفسير القَيِّم)، وكأن مقدمة الفاحشة فاحشة!

قادةُ البُور:

إن اقتراف أيٍ من الموبقات إجرامٌ يستحق أصحابه عذاب النار. غير أن هناك كبائر متعدية وأخرى لازمة، والجرائم المتعدية يختلف جرمها بحسب ما تُوقعه من ضرر وبحسب عدد المتضررين.

ولا شك أن قادة الشعوب وسلاطين الدُّول هم الأشد ظلماً والأكثر جرماً؛ عندما ينحرفون عن الجادة ويتلبسهم الطغيان.

ولذلك عجّب الله نبيه من هذا الصنف عندما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[إبراهيم:٢٨، ٢٩]؛ فإن الفساد قاطع لأواصر المجتمعات والظلم مؤذن بخراب العمران، كما أكد علماء الاجتماع من خلال استقرائهم لقصص سقوط مئات الدول، وأولهم ابن خلدون كما هو مشهور.

انحطاطُ الخطايا:

إذا أردتَ أن تطير في سماوات الرِّفعة والسؤدد، فتخفَّف من تراب الشهوات ومن ثقل الأوزار.

ولأن الجهاد في سبيل الله جناحٌ من أجنحة الصعود نحو المجد السماوي، لأنه بذل للأنفس والأموال في سبيل إطلاق حريات المظلومين ورفع الآصار عن المساكين، فقد قال الله عزّ وجلّ للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ..﴾.

إن جاذبية الشهوات الترابية وثقَل الخطايا الطينية تَشدّ الناس إلى القيعان وتنْحطُّ بهم نحو الأسافل!

***

آفاقٌ دعوية

إناءُ الدعوة:

يمكن القول من غير حرج بأن الدعوة إناءٌ فارغ يمكن ملْأه بالحق أو بالباطل، ويمكن تسخيره للمعروف أو للمنكر، ويمكن جعله وسيلة لترسيخ الهداية أو لإشاعة الغواية.

وفي هذا السياق قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ووصف الله صنفا من المارقين بأنهم يدعون الناس إلى النار، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾، وهكذا فإن الجميع دعاة ولكن أين هذا من ذاك؟ وهل يستوي الهداة مع الغواة؟!

أواني الدعوة:

شتان بين دعوة ودعوة، فالله ورسوله وأولياؤه يقفون على صراط مستقيم داعين إلى دار السلام، وغيرُهم يَدْعون إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

ولقد كانت امرأة العزيز وصويحباتُها داعياتٍ ولكن إلى الرذيلة والفحشاء، ولذلك قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ...﴾.

ولا يمكن إنكار أن إبليس أكبر داعية ولكن في طريق الغواية، وعندما يعترف بهذه الحقيقة يوم القيامة ويتبرأ من أتباعه فإنه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ...﴾، فلقد كان داعية وجد له أتباعاً ومستجيبين فأوردهم النار!

وكما أن الدعاة إلى النار يأخذون نصيبهم من الأوزار والعذاب دون أن يقلل ذلك من عذاب المستجيبين لهم؛ فإن الدعاة إلى الجنة يأخذون نصيبهم من الأجور والثواب دون أن ينقص ذلك شيئا من أجور المستجيبين ونعيمهم.

الدعوة بين الثبات والتغيّر:

دعا الله سبحانه وتعالى إلى قيام جماعة تدعو إلى الله، بما يُحقّق للناس الصلاح في المعاش والفوز في المعاد، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فالدعوة إلى الخير هي الدعوة إلى اتباع أمور الدين العامة؛ لأنه خيرٌ كله، والأمر بالمعروف أي ما تعرفت عليه الفِطَر السليمة والعقول السوية بتأثير النفخة الروحية والإلهام الرحماني إلى قيمة التقوى، والنهي عن المنكر أي ما أنكرته الفطر السليمة والعقول السوية، مما لم يرد به نص من نصوص الوحي.

وهذا يعني أن الدعوة تشمل مناطق الثوابت والمتغيرات الاجتهادية التي تلحق بالثوابت، وليست المتغيرات التي يسوغ فيها الاختلاف ويجوز فيها التعدد.

الحذَرُ من الناصحين:

ليس كل من ارتدى جلباب النصح ناصحاً، إذ قد يكون صاداً عن سبيل الله، سواء بقصد أو بغير قصد، ولقد وَلَج زعيم الشَّرّ إلى قلب آدم وزوجه من باب النصيحة، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، حيث حلف لهما الأيمان أنه مخلصٌ لهما ولا يريد بهما إلا الخير، وأقْسم أن إرادته هذه لا تشوبها شائبةُ الغش أو الخداع !

وفي حياتنا المعاصرة كم نجد لإبليس من تلاميذ ارْتَدوا ثياب العلماء العارفين وتَلفعوا بلباس الدعاة الناصحين !

بلاغٌ لا حساب:

تشتغل في عصرنا أعدادٌ من الدعاة بمحاسبة المُقَصّرين والمنحرفين، وينشغل كثيرون بالانتقام من الطغاة والثأر من الظالمين، هذا مع أن الله حصَر وظيفة الدعاة في البلاغ وجعل الحساب من خصائصه وحده، قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ومن المعلوم أن هذا الخطاب لمحمد ﷺ الذي هو أعظم رجل أنجبته البشرية وأحب الخلق إلى الله، بجانب أنه تَعرّض من قومه لكافة أنواع الأذى، فكيف بغيره من الدعاة؟!

وقال تعالى لحبيبه محمد في مقام آخر: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي لا تهلك نفسك حسراتٍ عليهم، ولا تحاسبهم على هذا التولي وذلك الانحراف، ولنلاحظ كيف استخدم تعالى في الآيتين كلمة إنما التي تدل على الحصْر والقصْر.

***

شمائل المُتَّقين

احترامُ عهود المشركين:

إن الطريق إلى تحقيق التقوى واستحقاق محبة الله، لا بد أن يَمرّ عبر معالم ومحطات عديدة، ومنها احترام العهود والمواثيق مع المشركين رغم أنهم يجعلون لله أنداداً، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، ومن العجيب أن هذا الأمر جاء في سياق إعلان الحرب على المشركين في الجزيرة العربية، بعد أن زادت اعتداءاتهم وتكرّر نقضهم للعهود، ولنتمعّن قليلاً في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وهم الذين التزموا أمره هنا وتجنّبوا ما يناقضه، فلا مكان عند المؤمن الحق لعواطف الحب والكره المنطلقة من الانطباعات الذاتية وإنما هو إعمال العقل في فهم مراد الله وتطبيقه بحذافيره!

إعطاءُ المشركين حقوقهم:

لقد وصل الحال في الحضّ على إعطاء مشركي مكة حقوقهم إلى أن سمّى الله الالتزام بعهودهم استقامةً، بل وختم الآية بالتأكيد على أن الله يحب المتقين، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وما دامت التقوى هي أن لا يفقدك الله حيث أمرك، وأن لا يجدك حيث نهاك، فإن فاصلة الآية تحضّ على احترام عهود المشركين وعدم خرقها إلا إن فعلوا هم ذلك أو قاموا بما يوجب الخرق !

الجدير بالذكر أن هاتين الآيتين وردتا في سورة التوبة التي يلقبها المفسرون بـ(سورة البراءة من المشركين)!!

سلاحُ التوحُّد:

في الآية التي تأمر بمقاتلة المشركين كافة كما يقاتلون المؤمنين كافة، ختمها تعالى بالدعوة إلى معرفة أن الله مع المتقين: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ إذ أن استخدام ذات الوسائل والأسلحة التي يستخدمها العدو هي من التقوى، لأنه لا يَفلّ الحديد إلا الحديد، والسلاح المقصود هنا هو الوحدة، ويقاس عليها كافة الوسائل والأسلحة المادية والمعنوية!

معرفةُ الله بالمتقين:

في الحضّ على النُّفرة في سبيل الله إذا دعا الداعي للجهاد بالأموال والأنفس، أكّد القرآن أن أصحاب الإيمان بالله وباليوم الآخر، لا يمكن أن يتنصّلوا عن هذا الأمر، ولا يمكن أن يستأذنوا الرسول في التحلّل من القيام بهذا التكليف، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]، ونلاحظ في فاصلة الآية كيف ربط الأمر للمرة الرابعة في ذات السورة بالتقوى؛ ذلك أن التقوى هي امتلاء القلب بمشاعر التعظيم لجلال الله وجماله وكماله، والاندفاع بإخلاص واقتناع لتطبيق أوامره واجتناب زواجره!

غلظةُ المتقين:

لا شكّ أن الأصل في المؤمن هو اللين والرحمة، بحيث يصبح بنعومة الحرير، لكنه في أوقات المعارك ضد الكفار الذين نقضوا العهود والمواثيق مع المؤمنين ولم يراعوا فيهم إلّا ولا ذمّة، ينبغي أن يكون بصلابة الحديد، ولهذا قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وتصرح خاتمة الآية بأن الله مع المتقين وهم هنا الذين يقاتلون المشركين بغلظة لا رحمة فيها، وبشدة لا هوادة معها!

ومرة خامسة هذه الآية في سورة التوبة، مما يستدعي التدبر العميق الذي يستوعب الأمور ويدرك الفروق، كمقدمة ضرورية في طريق التطبيق والتجسيد.

***

الثّوابُ العادل

خُدّامُ الحياة:

جاء الإسلام من أجل إحياء الناس مادياً ومعنوياً، ولذلك فإن من يُزهق روحاً واحدة فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن يُحييها فكأنما أحيا الناس جميعاً، هذا في الجانب المادي، أما الجانب المعنوي فهو أهم وأجلُّ، ولذلك ورد في الحديث الشريف: «لأنْ يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس».

ولقد شُرع الجهاد لحفظ الحياة المادية للإنسان من التّلَف وحماية حياته المعنوية من الفساد، ومن هنا فإن الذين بذلوا حياتهم من أجل المحافظة على حياة الآخرين يتكفّل الله لهم بالحياة الأبدية، من باب الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦]

الأَوْبةُ الدّاوُودية:

من المعلوم أن كل الأنبياء والصالحين كانوا روّاداً في العبادة لله على مستوى المحراب الكوني برُمّته، ولكن كل شخص كانت له بصمة مميزة في إطار خارطة العبودية لله.

ومما ميَّز نبي الله داوود عليه السلام أنه كان كثير التسبيح لله وسريع الأوبة إليه تعالى، حتى قال عنه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، فقد كان كثير الأَوْبة إلى الله ولذلك استخدم صيغة التفضيل «فعّال»، وكانت أول طلائع الجزاء الرباني على هذه الخصلة ما ذكره تعالى من تسخير

فريد للطير والجبال لكي يُسبحن معه في معزوفة تنزيهية جماعية يتوحد فيها الإنسان مع الكائنات الحية والجامدة، كما يشير إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وذلك على رأي من قال بأن الضمير في «له أوّاب» يعود على داوود لا على الله عزَّ وجَلّ.

كل ذلك من أجل أن يُبيِّن لنا المولى عزَّ وجل بأنه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، وأن من يعمل مثقال ذرّة خيراً يرَه !

الجزاءُ اللؤلُؤي:

إن فضل الله كعدله، من حيث الانطلاق من قاعدة (الجزاء من جنس العمل)، فمن «تلألأتْ» قلوبهم بأنوار الله، وتزيّنت الحياة بأخلاقهم الفاضلة، وتنوّرت الخلائق بأعمالهم الصالحة، فإن الله يكثر من «الألأة» جزائهم في الجنة، قال تعالى عن هؤلاء: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

ويصبح كل ما حولهم بل ومن حولهم يفيضُون بالجَمال ويُشعّون بالأنوار كأنهم اللؤلؤء المكنون في الأصداف، بما في ذلك الخدم، حيث قال الله عنهم: ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

وفي معرض وصف القرآن لجزاء السابقين المقرّبين ذكر تعالى من نعيمهم: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٤].

ولأن الجزاء يتعلّق بالعمل، فإن الله عندما تحدّث - في ذات السورة - عن نعيم أهل اليمين، لم يصف نساءهم (باللؤلؤء) بل قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٨]، ذلك أن الأنوار في قلوب هؤلاء وفي حياتهم لم تكن بنفس قوة وسطوع ما هو لدى المُقرّبين الذين هم المُسابقون في الدنيا والسّابقون في الآخرة، وبذلك صاروا في المركز الثاني من النعيم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، ومن المؤكد أن الأبرار ليسوا مثل المحسنين !

***

العقابُ العادل

السّيرُ على الوجوه:

اقتضت مشيئة الله العادلة أن تجعل الجزاء من جنس العمل، ولذلك فإن الذين تنكبّوا طريق الاستقامة، فعَمُوا عن رؤية الحقيقة، وصَمّوا عن سماع صوت الحق، وخرسوا عن قول كلمة العدل؛ هؤلاء سيحشرهم الله يوم القيامة عُمياً وبُكْماً وصُمّاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧/٩٨].

لقد مشى هؤلاء مُكبين على وجوههم عندما تنكّبوا صراط الاستقامة: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فكان جزاؤهم من جنس عملهم!

عندما تَحيقُ السيئاتُ بأهلها:

لا شك أن الثمار من جنس البذور، وأن المخرجات من ذات المدخلات والنتائج من أصل المقدمات، وبذلك نعرف أنه لا غرو في أن تكون الدنيا مزرعة الآخرة، وأن يكون الإنسان هو الزارع فيها، وسيحصل في الآخرة على ثمرة ما زرعه في الدنيا.

وتطبيقاً لهذه القاعدة القرآنية، فإن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٣، ٣٤]، فالذين نسوا الله في الدنيا نساهم الله في

الآخرة، والذين استهزؤوا بآيات الله استهزأت بهم ملائكة الله وهي تذيقهم العذاب الأليم بما صنعت أيديهم واستهزأت ألسنتهم !

بُحيراتُ التكذيب:

من المعلوم أن أطول الرسالات عمراً هي رسالة نوح عليه السلام، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً داعياً إلى وحدانية الله، حيث تفنَّن خلال هذه القرون التسعة في دعوتهم سراً وعلانية، وتذكيرهم ليلاً ونهاراً، وما فتئ يدخل عليهم من كل باب، ويستخدم معهم كل وسيلة، لكنه وُوجه بالصّدّ والتكذيب!

وما زال التكذيب بآيات الله يتساقط من علياء كبريائهم كالمطر، حتى كوّن بحيرةً نكدة من العذاب الأُجاج الذي أغرق المكذبين، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وتشير خاتمة الآية إلى أن الله لا يريد من الناس فقط أن يوقنوا بأن عاقبة التكذيب هي العذاب، بل يريد منهم كذلك أن يتأملوا في كيفية نزول العذاب وكيف تتطابق النهايات مع البدايات، وهو ما نقصده بجملة (الجزاء من جنس العمل)، وذلك حينما قال لحبيبه محمد ومن ورائه كل فرد في أمته: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

الجزاءُ المناسب:

إن قاعدة الجزاء الإلهي تقوم على أساس العدل المطلق، فالناس يختارون طريقهم بأنفسهم، ويصنعون مصيرهم بكامل إرادتهم، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، هذا في الدنيا، ويتأكد الأمر ذاته في المصير الأخروي، قال تعالى في ذات

السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

ولذلك لا مكان في المنهج الإسلامي للذرائع المكذوبة والمبررات الواهية، ولا يلومنّ أحدٌ إلا نفسه: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾!

***

خَلائقُ الكَمَال

الضّرَاعةُ والمُسارعة:

هناك علاقة وثيقة بين جوانح الإنسان وجوارحه، فإن قوة وجَل القلب يؤدي إلى صناعة جلائل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، فإن تَزايُد الوجل القلبي يتسبب في إذكاء القلق العقلي وتَسارُع العمل البدني، ولذلك صار أرباب القلوب هم رواد الفاعلية في عمل الصالحات، حيث لا يكُفّون عن المسارعة في الخيرات ولا يتعبون من المسابقة إلى تحصيل المعالي.

حُسنُ الظن:

يَفترض القرآن في الناس حُسن الظن ويجعل الأصل في التعامل معهم الحسنى، وعلى سبيل المثال فإنه ينهى عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ..﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويجعل الاستثناء هو المجادلة الخشنة مع الظالمين منهم، فكيف الحال في مجادلة المسلمين ومحاورة المؤمنين؟ أو ليس المسلمون أولى بالأدب في محاورتهم؛ لأنهم إخوة في الدين والرحم، والذلة لهم واجبة؟ ثم أليس الخلاف معهم في مسائل جزئية وقضايا فرعية، والتعدد في أوساطهم تعدد آراء لا رايات والاختلاف بينهم اختلاف برامج لا مناهج؟

استبصارُ الغد:

إن استكشاف المجاهل وارتياد الغوامض، وإن استبصار المآلات واستشراف الآتيات، يدخل ضمن المعاني الكثيفة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ...﴾.

ذلك أن الإسلام لا يفصل بين الدنيا والأخرى، إذ أن التخطيط العلمي لعمارة الدنيا وفق منهج الاستخلاف الرباني يعظم الأجور ويقلل الأوزار، ومن ثم فإنه يستجلب العون الرباني في الدنيا واللطف الرحماني في الآخرة.

أذَانُ الشكر:

لأهمية الشكر في استمطار سحائب الآلاء والمِنن، فقد أذن الله في محكم آياته بهذا الأمر فقال: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾، والتأذّن مثل الأذان، وهو إعلام واضح بأهمية الشكران وخطورة الكفران.

الاصطبار:

إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى في لغة القرآن، فعندما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ...﴾، ولم يقل (واصبر)، فإنه قد جمع أنواع الصبر الثلاثة، وهي:

-الصبر في الطاعات.

-الصبر عن المعاصي.

-الصبر على الابتلاءات.

إذ أن كل هذه الأمور من العبادة المأمور بالاصطبار عليها.

***

عَواقبُ الجُنود

استجلابُ الصُّدوف لسوء العذاب:

رأينا في زماننا وما زلنا، كيف يحيق بالمسلمين سوءُ العذاب، فها هي أدخنة الكراهية ترتفع في أعالي السماء، ونيران الأحقاد والحروب الأهلية تتأجّج في البلدان مُحرقة كل جميل، وها هي طاقات الشدة والعنف قد انسحبت من الخارج إلى الداخل حتى صار بأس المسلمين بينهم شديداً!

ولو تمعّنَّا في آيات القرآن لأدركنا السبب وعرفنا العلة، وتُقدم سورة (الأنعام) توضيحاً كافياً للألباب، ولكن *أنّى للأنعام أن تفهم*؟!

لقد جاءت المسلمين بيناتٌ من ربهم وهدى ورحمة، لكنهم صَدَفوا عنها، وهذا الظلم الذي لا يَعدله ظلم هو الذي استوجب سوء العذاب، كما قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧].

ولأن الله قد اختص هذه الأمة بأن لا يسلط عليها عدوا من خارجها يستأصل شأفتها ويبيد خضراءها، فقد جعل عذابها بأيدي أبنائها، ذلك أن المسلمين حينما يتنكبون طريق الهداية، يصيرون أذلة على الكافرين أعزةً بينهم، ثم تنفجر طاقة الكراهية القلبية لتصبح نارا مادية تحرق الأخضر واليابس، وعندها يصير المسلمون رحماء مع الكفار أشداء على بعضهم، كما نشاهد الآن تماما في عدد من البلدان!

استجلابُ الهوان:

إن عصيان أوامر الله والاعتداء على حدوده وانتهاك حُرماته؛ يستجلب الذّل والمسكنة ويستوجب غضب الله ومقته.

وهذا ما ذكره الله عن بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

إن تجسيد هذه الآية يُرى في واقع حال المسلمين اليوم، ولا سيما العرب الذين ضربهم الذل واستوطنهم الهوان، حتى أنهم تبادلوا المقاعد مع بني إسرائيل، صانعين بخنوعهم أسطورة: (جيش إسرائيل الذي لا يُقهر)!

دخولٌ وخروج:

عندما اعتقد العرب أن الله أوجدهم لإيصال هذا الدين إلى العالمين، وآمنوا بأنه تعبّدهم بتبليغه للبشر كافة؛ فإن الله قد شرّفهم به وأدخلهم محراب العزة وبوّأهم نواصي الحضارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، والذكر هنا هو الشرف والرفعة وهو المجد والتلادة.

وعندما نزلوا عن هذا الأفق الرفيع، معتقدين أن الله أوجد هذا الدين من أجل تشريفهم وتقديمهم على الناس؛ عادوا القهقرى وخرجوا من أبواب الحضارة إلى قفار التخلف وبَيادي الضياع!

الفرارُ من الزّحف:

لا شكّ أن من عوامل هذا التكالب العالمي على القصعة الإسلامية وجود جموع كبيرة مارست الفرار من الزحف وتركت ثغورها شاغرةً تشكو الوحدة وتعاني من الخواء!

إن هؤلاء قد ولّوْا أعداءهم الدُّبُر، غير متحرفين لقتال ولا متحيزين إلى فئة من المسلمين، بل صاروا منحرفين عن القتال ومتحيزين إلى الظالمين؛ خشية من الموت وبُعداً عن ذات الشوكة !

القتلُ بهَجْر الديار:

إذا سُفكت الدماء المحرمة صارت العواقب وخيمة، حيث ستعم الفوضى وتكثر الأحقاد والثارات، ويشيع الفساد ويَعُم الخراب، مما يؤدي إلى هجر الديار ومفارقة الأوطان، وهذا ما ذكرته الآية التالية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾. ولاحظوا كيف نفّرت الآية من هذه الجريمة الكبيرة بتعبير: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

وهذا ما تؤكده الحروب الأهلية بين القبائل العربية المعاصرة التي تسمى دول أو أوطان، حيث وصل الظلم إلى حد سفك الدماء لأتفه الأسباب، ومن رحم هذه الجريمة انبعثت آفة الثارات وشاعت الفوضى التي أنتجت الخراب وأحالت الحياة إلى بلاقع، مما دفع الناس إلى مغادرة ديارهم والفرار من أوطانهم!

***

أشواكُ الكفر

الضلالُ المُتعدّي:

هناك ضلالٌ لازمٌ للذات وآخر مُتعدٍّ إلى الناس، والآخر هو الأخطر، ولذلك وصفه الله بأنه ﴿ضلال بعيد﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧]، حيث أنهم لم يكتفوا بالكفر في ذاتهم بل انتقلوا للصَّدّ عن سبيل الله، مما تسبّب في فتنة آخرين وربما أدى إلى خروج بعضهم عن الإسلام!

وهذا من أظلم الظلم وأكبر الكبائر، ولذلك توعّد سبحانه الذين يجمعون بين الكفر والظلم بالضلال السّرْمدي والعذاب الأبَدي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨ا١٦٩].

سرابُ الكُفر:

يتكون الماء من عنصري الهيدروجين والأوكسجين بنسبة ١ – ٢ كما هو معلوم، وبالمثل يتكوّن الإيمان وشُعبُهُ العمليةُ من عنصري العلم والإخلاص.

ولهذا شبّه الله أعمال غير المؤمنين بالسّراب الذي يحسبه الظمآن ماءً لكنه لا يجده شيئاً وإنما يجد الله صاحب الحساب، جزاءَ عدم وصوله إلى الله في الدنيا بالإيمان.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

رياحُ الكُفْر:

الكفر ريحٌ شديدة الهبوب تُمزّق شمل الأعمال، وتعيدها إلى ذرّاتها الأولية، كما قال تعالى عن الذين لا يرجون لقاءه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

افتخارٌ كاذب:

من أسوأ الأصناف في المجتمع المسلم وأغباها، الذين يبحثون عن مُخرجات بلا مُدخلات، ويُحبون أن يُحمدوا بالعدل وهم يزرعون أشواك الظلم، ويتمنّون أن يقترن ذكرُهم بالهداية وهم يَهيمون في دروب الغواية، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

كُفرُ المسلمين:

إن الذين لا يلتفتون إلى حِكَم وأسرار الكون، ولا يستثمرون مكوناته وإمكاناته في استعمار الأرض وصناعة الحياة، إنما يقولون بلسان حالهم بأن الله خلق هذا الكون عبثاً، وبأنه - عزَّ وجَلّ - كان يلعب عندما خلق هذه الكائنات، معاذَ الله!

ويَردُّ الله على هؤلاء بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان :٣٨].

ويمثل هذا الأمر صورة من صور الكفر بالله، وهو كفر النعم والآلاء، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وعلى هذا الأساس قد يقارف هذه الصورة من الكفر أناس ينتسبون للإسلام، كما نرى في عصرنا هذا، حيث ساقهم جهلهم بدينهم

أو تقليدهم لثقافة القوي نحو هذا المنزلق الخطير، حتى صار من الشائع أن تجد مسلما صار بأقواله أو أفعاله قاب قوسين أو أدنى من الكفر!

الإيمانُ العَقيم:

إنّ الطاقات الإيمانية شمس لاتعرف الغروب، ووظيفتها هي إسالة مياه الخير وإشعال مصابيح الهداية، ومن لا يؤمن بالله فإن أعماله، مهما كانت كبيرة وكثيرة، لا تمنحه الخيرات ولا تَهبه الأنوار، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩/٤٠].

***

أجْنحةُ الحرّية

البلاءُ العظيم:

إن البلاء الرباني العظيم للناس هو بلاء الحرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

ويبدو لي أن اسم الإشارة: (ذلكم) يعود على (نجّيناكم)، حيث حررهم الله من استعباد الفراعنة لهم، وهذا التحرير بقدر ما هو منّةٌ عظيمة من الله، فإنه اختبار شديد العظمة، ويتطلب استحقاقات كبيرة حتى ينجح الأحرار في هذا الامتحان.

الإرادةُ الجِداريّةُ:

عندما لا يمتلك الإنسان إرادة العمران، تلك الإرادة التي يملأ بها عقله ويعمر بها قلبه، ويحيلها إلى طاقة جَوَارِحية تصنع الفاعلية في الذات وتنجز العمران في الأرض؛ فإن طاقة السُّنن تنتقل إلى الأشياء فتبذر فيها بذرة التّهتّك، حتى أن الجدران لتمتلك إرادة الخراب والانقضاض، كما قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ !

وهذا ما نراه في المجتمعات المختلفة التي تعاقر الظلم وتمارس العبودية في معاملاتها اليومية، وتزرع قيم الجهل والعجز والسلبية في عقول المواطنين، وتبث في قلوبهم مشاعر الكراهية والدونية وانتظار الخلاص من عالم الغيب، حيث نرى كل شيئ يتداعى فيها!

معرفةُ الأعمال:

قد تكون شخصاً غير معروف لكن معروفك يشير إليك ببنان الإعجاب، ويَسمك بميسم الرجولة ويطبعك بطابع التميز والنجابة، كما قال الله عن رجل من آل فرعون: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، إنه رجل حر يأبى العبودية ويكره الضيم ليس لنفسه فقط ولكن لكل الناس بمن فيهم من ليس من جنسه وربما ليس من دينه؛ ولذلك جاء يهرع مهرولاً من أقصى المدينة، جامعاً بين السرعة الحسية والرغبة البالغة في المحافظة على حياة موسى، وهذا ما تشير إليه كلمة (يسعى)؛ ومن هنا فقد وصفه الله بأنه (رجل) بل جعله اسما له يُعرف به، والرجال هم من تتوافر لهم أعظم الخلال !

العقلُ لا الأعناق:

الإسلام دين حرية يحترم اختيار الإنسان ويُقدّس حريته، ولا تزال معجزته عقلية صرفة، ولا قيمة للإيمان ما لم يكن ثمرة الإيقان العقلي واليقين القلبي، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، لكن الله لا يريد الإيمان الجبْري الذي تخضع له الأعناق وتنحني له الرقاب، وإنما أراد الإيمان العقلي الذي يستوطن القلوب ويمتلك البراهين التي تصنع القناعات القطعية التي لا تزلزلها الشبهات والشكوك فضلا عن الظنون والأوهام.

ابنُ الأرض:

من يفقه الرؤية الكونية في الإسلام يدرك أن الإنسان سيد هذه الأرض بلا منازع، رغم وجود الجن والملائكة معه فيها، ذلك أنه وحده من خُلق من طينة هذه الأرض، فهو ابنها البارّ وهو أولى بسيادتها.

وهو درسٌ عمليٌ بليغ، يُعلّمنا كيف ينبغي لكل شعب أن يكون سيداً على أرضه مهيمناً على وطنه، ولا يسمح لأحد بأن يتطفل على خصوصياته، فضلاً عن سلب السيادة أو فرض الإرادة التي يقوم بها الغُزاة والطُّغاة على حدٍ سواء !

***

ارتيادُ المستقبل

صناعةُ المستقبل:

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾، دعوة لورود التخطيط من أوسع أبوابه، فإن النظر إلى ما ستقدمه للغد، هو دعوة لإعمال العقل في التجويد والتحسين، وهذا يحتاج إلى تخطيط دقيق؛ يؤدي إلى ترتيب الأولويات ورصد العقبات، ودراسة كيفية تجاوزها، والعمل من أجل تحويل التحديات إلى طاقات، والارتقاء بالأداء وتطوير الحركة، وصولاً إلى أعلى درجات الإجادة وأرْفَع ذُرى الإحسان.

ولأن منجزات الغد نبنيها اليوم؛ فقد استخدم التعبير القرآني الفعل الماضي (قدَّمت)، مع أن الحديث عن المستقبل.

ومن أجل شدة الرقابة وقوة التدقيق؛ فقد وضع النظر إلى الغد بين أمرين ربّانيين بتقوى الله تعالى، بحيث يجدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، وذلك في أكناف العبودية الكونية كلها.

استِشْفاف:

إن من يعيش تحت ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، يستشف أن القادم أفضل من الماضي، وأن الآتي أحسن من الآني، وأن الأجمل لم يولد بعد، وما على الناس إلا الاستعداد بالأسباب لولوج المستقبل، كما يستعدون للآخرة!

وتمنحنا الآية الإيمان بأن ما ينتظرنا في أرحام الغيب أفضل مما نملكه في عالم الشهادة، وذلك إن اعتلينا ناصية الإيمان وركبنا صهوة الصالحات!

سُنّةُ الوراثة:

إذا كان الله قد أورث كتابه المصطفين من عباده، ولو كانوا في الحد الأدنى من امتلاك شروط الوراثة وهم الظالمون لأنفسهم، كما في الآية ٣٢ من سورة (فاطر)، فكيف بوراثة الأرض؟!

لا شكّ أنها لمن اقترب من مشيئة الله الغالبة، وهي السنن والأسباب، ومن ثم يكون الصلاح مرتبطاً بالأهلية في عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

وإن وراثة أصحاب السُّنَن للأرض هي سنة لازمة بحد ذاتها، ولا يمكن بتاتاً أن تتخلف أو تتبدّل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾، حيث استخدم فعل الكتابة بالماضي ليفيد أن هذا الأمر قد أصبح مقضياً.

واستخدم حرف التحقيق: ﴿وَلَقَدْ﴾، ثم إنه أودع هذه الكتابة في سائر الكتب السماوية والتي يشير إليها بكلمة ﴿الزَّبُورِ﴾ !

شهادةُ الله:

هناك شهادات كثيرة ينبعث بعضها من بين صفوف المسلمين للأسف، ويرتفع بعضها من صفوف المشركين والكافرين، مؤكدةً أن لا مستقبل لهذا الدين، بزعم أنه دين العنف الإرهابي والتخلف الحضاري !

لكن شهادة الله تؤكد أن كل الأفواه التي تنفخ لتطفئ نور الله ستنطفئ هي، وسيشرق نور الله على مختلف الأرجاء، حيث سيظهر الإسلام على كافة الأديان: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، فأي الشهادات أحق بالوثوقية: شهادة أراذل الخلق أم شهادة أحسن الخالقين ؟!

الظهورُ المنقوص:

وعد الله بأن دينه الخاتم سيظهر على سائر الأديان، فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وفي عصرنا هذا نجد أن ظهور الكمال والجمال، والذي يتجسد في القوة الذاتية لهذا الدين وقدرته على إقناع العلماء وامتلاك ألباب العارفين، ما زال حاضراً بقوة، حيث أن صورته ناصعة في ذاته وحجته دامغة لخصومه، وما فتئت مقاصدُه تحقّق حاجات الناس المادية وتُلبي أشواقهم الروحية.

غير أن ظهور السلطان والغلبة في ميدان القوة، تراجَع في عصرنا حتى صار جَزْراً بلا مَدّ وهزيمة بلا نَصْر؛ ذلك أن هذه الهزيمة مرتبطة بتقصير المسلمين وليس بقصور الإسلام، وما دام المسلمون نائمين عن الإسلام فستظل هذه الغلبة مفقودة!

***

آفاقُ العقول

تَذكُّرُ الألْباب:

الألباب ليست فقط أداة للتعقُّل والتفكُّر، بل هي أيضاً أداة للاعتبار والتذكُّر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، وكأن الله يسخَر من الذين لم يتذكروا ويَدْمغهم بأنهم بلا عقول!

سُيوفُ البراهين:

يرفض الإسلام الانحياز سوى للحقائق، ويأبى التعصب إلا للبراهين، ولهذا قال تعالى للمشركين: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن في البراهين العلمية أدلة قاطعة وشواهد صادقة، ولا تخلو من حُجَج دامغة ودلائل بالغة.

ويمكن القول بأن البراهين سيوفٌ حادة تقطع أشواك الشكوك وتَجتثّ سيقان الشبهات!

الإيمانُ البُرهاني:

إن النظر في ملكوت السماوات والأرض هو الطريق الأسلم للإيمان بصاحب الملكوت وخالق الوجود، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ذلك أن التفكر في الكائنات بطريقة علمية يوصل المرء إلى الإيمان البرهاني الذي لا تُزعزعه الشّكوك ولا تُزيحه رياح الفتَن العواتي.

شرفُ العقل:

إن المكانة الشريفة تحتاج إلى عقول راجحة، ولهذا قال تعالى للعرب خصوصاً: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وذكركم هنا تعني شرفكم

ومجدكم وعزكم وفخركم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ أي شرف ومجد ومكانة، ولا شك أن كل شرف لا يصحبه عقل إنما يتحول إلى منقصة تثير سخرية الآخرين!

ضيقُ الأُفُق:

عندما تضيق آفاق العقول تعجز عن إدراك الفرص المتاحة، وربما ضاق عليها كل شيء، حتى الأرض الواسعة تصبح عند البعض أضيق من جُحْر ضَبّ!

ولا شك أن هؤلاء سيتعرضون لتوبيخ الله، عندما يقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؟!

***

رياحينُ الوحدة

سماءُ الشريعة:

إن مصطلح الأمة بحْرٌ ممتلئ بقيم الوحدة ومفردات الاجتماع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وهذا لا يعني تذويب الفوارق الاجتماعية وإنكار الفروق الفردية، بل يعني الاجتماع على الثوابت، حيث الوقوف على (أرضية العقيدة) الصُّلبة، والاستظلال تحت (سماء الشريعة) السامقة!

وتتضمن الشريعة أمّهات الأحكام التي جاءت لتنظيم حياة الإنسان، من أجل جلب السعادة الدنيوية له وتحقيق الفوز الأخروي، إنها وحدة الانطلاق من (نُجوم الإيمان) نحو (عَرَصات الصالحات) من الأعمال.

وحدةُ الرسالات:

لقد تَكرّر كثيراً خطاب القرآن: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهو إنما يريد اليهود والنصارى، فكيف ينسبهم إلى كتاب واحد مع أن عندهم التوراة والإنجيل ؟!

يبدو لي أن الله يريد أن يقول لنا بأن مصدر الكتب واحد وهو الله، وغايتها واحدة وهي تعبيد بني آدم لله وحده، مهما اختلفت الشعائر والشرائع.

ومن ثم فإنه عندما يدعوهم إلى القرآن فإنما يدعوهم إلى التوراة والإنجيل قبل تحريفهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

اجتباءٌ واصطفاء:

يُذكّرنا القرآن بأن الاصطفاء لا يكون إلا ثمرة لشجرة الاجتباء، والاجتباء هو تجميع لأبعاد الشخصية، بحيث تتضافر طاقاتها وتتضامن في سبيل الارتفاع بفاعليتها إلى أبعد حد ممكن، ومن ذلك قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، حيث جمع له شمله، وجعل مداركه العقلية وأشواقه الروحية تسير في طريق الاصطفاء الذي أحلّه مكاناً علياً بمقياسي الدنيا والأخرى.

وينطبق ذلك من باب أولى على الأمة، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، حيث أن الشهود الحضاري ثمرة التضلفر بين طاقات الأمة العقلية والروحية والنفسية والوجدانية والجسمية وسيرها على ذات الدرب ومن أجل تحقيق نفس الغاية. ولهذا فقد ختم الآية بالأمر بأسس التوحد، فقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

الوحدةُ قبل العبودية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فقد قدَّم الوحدة على العبودية، وجعل وحدة الأمة منّةً كبيرة تستحق الشكر عبر إخلاص العبودية لله، ومثلها قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، فقد تحدّث عن (الإيلاف) وهو التوحد، وذلك قبل أمره لهم ب(العبادة)، ثم عاد بعد العبادة ليَمْتَنّ عليهم بنعمتي الإطعام من جوع والأمن من خوف.

مساكبُ التدبُّر

حَملُ الحمير:

إن تلاوة الكتاب الكريم بدون تدبر عقلي؛ لا تمنح أصحابها العلم النافع ولا تعصمهم من الاختلاف الزائغ، بل تورثهم جهلاً مركباً وتزرع فيهم الاختلاف المقيت، كما فعل أهل الكتاب ومن جاء قبلهم من أصحاب الملل والنحل التي لا يعلم عددها إلا الله، ممّن حمّلهم الله الكتب المقدسة فلم يتحملوها بعقولهم وإنما على طريقة الحمار الذي يحمل أسفاراً!

لقد تسابق أهل الكتاب على احتكار الحقيقة المطلقة وتسفيه بعضهم وصولاً إلى حد الشيطنة؛ نتيجة عدم العلم بالكتاب، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]. فقد أبدى القرآن التناقض بين احتكار الحقيقة وبين أنهم يتلون الكتاب، ثم أكد ارتباط هذه الآفة بانعدام العلم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ﴾، أي مثل قول اليهود بأن النصارى ليست على شيء والعكس، ذلك أن العلم الحقيقي يكشف لأصحابه كم يجهلون من أشياء ويدفعهم للانشغال بأنفسهم وللبحث عن أعذار لغيرهم.

حصادُ الكُفران:

إن الذين لا يتدبرون القرآن ولا يتلونه حق تلاوته، قد يَنزلون منازل الكافرين من بعض النواحي أو في المآلات النهائية، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

والخسارة الدنيوية والأخروية لا تكون إلا ثمرة الكفران بالقرآن، وهذا ما يحصده المسلمون في عصرنا مع أنهم لم يكفروا بالقرآن نظرياً، غير أن عدم تدبرهم له حمّلهم أوزار سوء الفهم وسوء التطبيق، وصاروا في المآل كمن يكفرون به!

التأهُّل للسّماع:

إن القلوب التي تتسم بالسلامة وتزخر بالخَير هي المُؤهّلة لسماع القرآن، ومُحال أن يسمع كلام الله القلب المُنْبَت عن الخير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الانفال: ٢٣]، أي ولو أسمعهم الله مع وجود الشرور في القلوب، فإن هذه الشرور ستدفعهم للتولي عن الهداية والإعراض عن طريق الاستقامة.

الوِرْدُ الوَقْتي:

في قضية قراءة القرآن يراعي الخالق ظروفك أيها القارئ، ولذلك قال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، ولكن عندما تتصدى للقراءة؛ سواء أكْثَرتَ أم أقلَلْت، أطلت أم قصرت، ينبغي أن تقرأ بإتقان حسب الوقت المتاح لك، فقد شدّد الله على هذا الأمر حينما وصف المؤمنين بأنهم: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ ولذلك إربط وِرْدَك اليومي بالوقت لا بكمية الآيات، حتى لا تندفع للإكثار على حساب التدبر.

المنهجُ النبوي:

إن الطرق التقليدية في التعامل مع القرآن والتي ترتكز على التحفيظ؛ لا تشفي العليل ولا تروي الغليل، ولا بد من تفعيل المنهج النبوي الذي يقوم على تفتيق الملَكات العقلية وتحفيز الأشجان القلبية، وعلى استثارة الطاقات النفسية والأشواق الروحية؛ من أجل اكتشاف أبعاد النّصّ القرآني والالتحام الوجداني

مع صاحب الخطاب، وفي سبيل النزول به إلى سفوح التطبيق بما يستوعب المتغيرات ويحقق المقاصد.

ضلالُ الحفظ بدون تدبر:

إن الذين يجمعون مسائل العلم بدون فقه، ويحفظون آيات القرآن من غير تدبر، ويقرؤون النصوص بدون وعي؛ معرّضون لارتكاب حماقات كبيرة، وربما ضلّوا وأضلوا عن سواء السبيل!

وفي هذا السبيل قد تجد من حفظة القرآن بدون فهم من يضارع هبنقة المشهور في التراث العربي بحماقاته، لكنه في قرارة نفسه يعتقد أنه لقمان الحكيم!

***

مَدَارِجُ التدبُّر

مدارجُ التدبُّر:

إن كتاباً تنزَّل على العالمين من فوق سبع سماوات، لا يمكن بلوغ مضامينه السامقة أو قطْف ثماره الباسقة دون اعتلاء مدارج التدبُّر !

وبدون هذه المدارج سيظل البون شاسعاً بين إسلام يتربّع على عروش القيم الحضارية ويعتلي ذُرى الرُّقي، وبين مسلمين يقبعون في السفوح ويَنحَطّون نحو الأسافل!

ولهذا فقد اختزل الله مقاصد تنزّل القرآن في التدبر، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

تنزُّلُ المعاني:

إنما يتصبَّب شلاّل القرآن من الذُّرى إلى القيعان، ولذلك لا يرتوي من نبع القرآن إلا من استقام تحته وقدّم عقله وقلبه للاستقاء، أما المتكبرون فيموتون بعطشهم، وإلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، قال سفيان بن عيينة في تفسير هذه الآية: أحْرَمَهم فهْم القرآن!

وهكذا فإن معاني القرآن تتنزل على الخاشعين المتواضعين، ولا تصعد إلى المُتكبرين المُتعالين !

قانونُ الاستجابة:

القرآن هو أنفاسُ الإيمان وروح الموجودات، وبدونه تختنق الكائنات ويموت القوام الروحي في الإنسان، ولهذا سماه الله روحاً كما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ

مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، وهذه المشيئة الإلهية ليست بعيدة عن مشيئة الإنسان، فإن الأمر متاح للجميع بالتساوي، ولكن عن طريق قانون الاستجابة المتصل بالتدبر الذي يوصل مدَد الحياة إلى العقول والقلوب بحسب قابلياتها ومكابداتها، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ذلك أن المتدبر للقرآن كما قال الإمام الزّرْكشي: «يَرتع منه في رياض، ويَكرع منه في حياض. أنْدى على الأكباد من قَطْرالنّدَى وألَذّ في الأجفان من سِنَة الكَرَى».

الاتباعُ الذاتي:

لقد وعَد الله من اتبع هُداه بالوقاية من الخوف والحزن، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولا يكون الاتباع منطلقاً من الذات إلا إذا تزيّن العقل بالعلم وامتلأ القلب بالخشوع، ولا يتم هذا وذاك بدون التدبر، ولذلك كان التدبر حَجَر الزاوية في التعامل مع القرآن الكريم.

مياهُ التدبُّر:

إنما تَلين القلوبُ القاسية وتُنبت ما يُبهج الأنفس وما ينفع الناس؛ إذا سُقيت بآيات القرآن ورُويت بمياه التدبُّر!

***

آفاتُ اللا تدبُّر

بين العَمَى والعَشَى:

أخبر القرآن أن للذين يُعرضون عن القرآن بالكُلِّية معيشةً ضنْكَى في الدنيا وعمىً كاملاً في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، ذلك أن القرآن هو (النور) الهادي وبدونه سيتخبط المرء في (الظلمات) وستصيبه الدياجير بالعمى.

أما من يرى القرآن بعين (كليلة)؛ فإنه سيصاب (بالعَشَى): ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

وما هذا العشى إلا بسبب التلاوة الخالية من التدبر، والقراءة الخاوية من التبصُر؛ إذ أن التدبر يُجلي البصر ويُذْكي البصيرة !

ولأن هؤلاء اللا متدبرين قد يكونون من حفظة القرآن فإنهم يحسبون أنهم مهتدون، ومن ثم قد ينطبق على بعضهم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

ويُروى في هذا السياق أن أحد الخوارج افتخر أمام الخليفة علي بن أبي طالب بأنه من (الشُّراة) أي الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، فقال له: «بل أنت ممن قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ... ﴾ الآية» !

البوصلة الخاطئة:

إن استثمار آيات الله القرآنية على الوجه الأمثل بحاجة إلى تدبُّر، وتحتاج آياته الكونية إلى تفكُّر، وآياته النفسية إلى تبصُّر.

وهذا ليس بالأمر الهيّن، ويحتاج إلى وقت طويل، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، ذلك أن قطف الثمرة قبل نضوجها يُمثّل خسارة كبيرة.

وفي حالة الآيات فإن الخسارة ليست في ضياع الجهود والأوقات سدى، بل ستتعاظم الخسارة عندما يكون للإنسان بوصلة خاطئة؛ نتيجة الأفهام الناقصة والرؤى القاصرة والتي خرجت من رحم العجلة!

بُخلُ التدبر:

وصف الله القرآن الكريم بأنه غزير النفع متجدد العطاء، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، فإن وصفه بالكريم هنا يعني أن نبعه لا يجف وعطاءه لا يتوقف.

لكن هذا العطاء رهين التدبر، إذ أن لآلئ معانيه تسكن في أصداف حروفه، ولا بد من فتح هذه الأصداف بتشغيل طاقات العقل، عبر آلية التدبر.

إذاً القرآن (كريمٌ) في تُحَفه وعطاياه، لكن (بُخل) التدبر هو الذي يَحُول دون إبصار معانيه واكتشاف جواهره!

الخشوع المُبصر:

المؤمن الحق يتصف دوماً بيقظة العقل، فلا يغيب وعيُه تحت أي ظرف، وحتى في حالة الانفعال القلبي بآيات القرآن وفي أثناء السجود بين يدي ربه فإنه لا يزال في كامل وعيه. ولا يمكن أن يقع في ما يقع فيه بعض المتصوفة الذين

تغيب عقولهم فيرتكبون بعض الحماقات وهم تحت تأثير سكرة الوجد، سواء كانوا في الصلاة وقراءة القرآن أو أثناء أداء بعض طقوسهم الصوفية المعروفة.

يبدو أن هذا المعنى يحتمله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

قال الزّجّاج: المعنى إذا تُليت عليهم آيات ربهم خرّوا سُجّداً وبُكياً، سامعين مبصرين!

تطهيرُ العقل والقلب:

إن الدخول إلى مناجم القرآن واكتشاف أسراره المتجددة واستخراج كنوزه المطمورة؛ يحتاج إلى طهارة القلب والعقل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

فإن المكنون هنا مرتبط بالعقل والقلب، بعكس اللمس الذي هو مرتبط بالحسّ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

ومما يؤكد أن المسّ معنوي لا مادي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، ولو أراد الطهارة الحسية لقال: ﴿إلا المُتطهّرون﴾، ذلك أن الطهارة العقلية والقلبية تزكية والله يزكي من يشاء من عباده، وفق استعداداتهم ومجهوداتهم.

انتقامُ القرآن

تحذير رباني:

إن للقرآن انتقاماً ممن هجروه أو أساؤوا التعامل معه، فلم يقرؤوه وفق المنهج النبوي في التدبر والخشوع وفي التلقي من أجل التطبيق، وقد عبّر القرآن عن هذه الحقائق في جملة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فبقدر ما هو شفاء للمؤمنين من آفات الجهل وأسقام العقول ومن علل النفوس وأمراض القلوب، فإنه ينتقم ممن يجانبون منهجه في التعامل مع نصوصه، وعلى سبيل المثال فإن الظالمين بعد قراءته يتحوّلون من خاسرين إلى أخسرين، بمعنى أن المؤمنين يرتقون المزيد من مراقي الصعود كلما قرؤوه بينما يهبط المنحرفون دركات في سلّم التسفل والابتعاد عن منهج الرشد!

خصوبةُ القلوب:

عندما يستصلح المرء جوانحه ويُصلح دواخله؛ فإنه بمجرد انسكاب سحائب القرآن على تلاله يُنبت من كل زوجٍ بهيج.

لكن الطبيعة المزدوجة للإنسان تجعل الأشواك والحشائش الترابية الضارة تُزاحم النباتات الروحانية النافعة وتُقلل من ثمار الخير، إن لم يبادر المرء إلى اقتلاعها بقدّوم التوبة أو قصقصتها بسندان المراقبة.

وكلما زاد انسكاب أمزان القرآن زادت هذه النباتات ترعرعاً، مما يستدعي مراقبة دائمة ومجاهدة دائبة.

وهكذا، فإن خصوبة القلوب لا تعني خلوصها من الشوائب وخلوها من الأكدار، لأن الإنسان مهما تزكّى لا يبارح بشريته إلى حد الانفكاك !

انتقامُ البركة:

البركة من الصفات التي يمتلكها القرآن دون سائر الكتب، فهو كتاب مبارك، ولهذا فإنه عندما ينسكب على القلوب تنمو ما فيها من قيم ومشاعر، سواء كانت حسنة أو قبيحة، فالمؤمن يزداد إيمانه والفاسق يزداد فسقه، ولهذا قام منهج الصحابة في التعامل مع القرآن على تحصيل الإيمان أولًا، بينما جاء أناسٌ -كما تنبّأ عبد الله بن مسعود – ركزوا على حفظ القرآن قبل قيامهم بترسيخ الإيمان، فانبعثت من قلوبهم المشاعر المريضة، كما قال تعالى وهو يتحدث عن السورة القرآنية: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وبعد هذا الكلام الإلهي الواضح لا نستغرب أن نجد من حفاظ القرآن من قاموا بجرائم عنف شنيعة ضد أبرياء، وقد كان الخوارج سلفاً سيئا لهؤلاء، فكم قتلوا من مسلمين تحت عنوان ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وبحجة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ولقد كانوا يحفظون القرآن ويتلونه أكثر من الصحابة بل ويبكون عند سماعه حتى تخضل لحاهم، وكانوا يطلقون على أنفسهم (الشُّراة) كما أسلفنا، لكن ذلك كله لم يعصمهم من تكفير المسلمين ولم يمنعهم من الولوغ في دمائهم، وفي مقدمتهم الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب الذي كفروه واستباحوا دمه رغم أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة!

وهذا يُحتم على مدارس ومعاهد القرآن أن تكُف عن تحفيظ الصغار القرآن قبل أن يتلقّوا أساسيات الإيمان، فإذا استقرت في القلوب انطلقوا لقراءة الآيات بطريقة متدرجة خمس خمس أو عشر عشر آيات كما كان منهج الصحابة الكرام،

وعندها سينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

أواني التفسير:

القرآن كالبحر لا يَفسد ولا يركد؛ لأنه مطلق الحق والصواب، غير أن تقييد بعض معاني القرآن في تفاسير ضيقة يؤدي إلى ركودها وتغيرها مع تغير الزمان والمكان والناس، كماء البحر الذي يوضع في أواني صغيرة ولآماد طويلة من الزمن !

نسبيةُ التفاسير:

عندما يتدخل الإنسان في تفسير نصوص القرآن، تكتسب هذه التفاسير نسبية الإنسان، ومحدودية الزمان والمكان اللذين عاش فيهما المفسر لأن كل مفسر يحاول تنزيل مطلقات القرآن على حاجات وظروف زمانه المتغيرة، ومن ثم فإن هذه التفاسير تفقد إطلاق القرآن، وهذا يستدعي من العلماء ممارسة القراءة النقدية للتفاسير، ولا سيما البعيدة منها عن بيئة القارئ، زماناً أو مكاناً.

من معاني الكتاب:

من أسماء القرآن (الكتاب)، ومن معاني هذا الاسم أنه متكامل يجب الإيمان به جملة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ...﴾ [الأنعام:٩١]، فالكتاب تعبير عن التلقّي الكلي، والقراطيس تعبير عن تحكيم الأهواء التي تجعلهم يقومون بفرز أوراق الكتاب ليأخذوا بعض القراطيس منه ويتركوا البعض الآخر، بمعنى أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه.

تضافرُ المَنْهل والمَنْهج

كُلّيةُ المنهل والمنهج:

ستتوحّد أمتنا في غمار الحياة عندما تتحد في المنهل والمنهج، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، بحيث تنهل من الشريعة وتتزاحم في السير على ذات المنهج، وإن تعددت الرؤى والأفكار وتنوعت الوسائل والأساليب.

وعندما يتحد المنهل والمنهج فلا ضير في تعدد التيارات الفكرية والمذاهب الفقهية، ولا مشكلة في تنوع الفرَق الكلامية والطُّرُق الصوفية، وحينئذٍ فإن التعدّد لا ينفي التوحّد، ولا يُفسد الاختلافُ للوُدّ قضية.

التأسيسُ لتكامل المَنهل والمَنهج:

إن اتحاد المنهل والمنهج هو الذي يؤسس لخير أمة أخرجت للناس، حيث يعصمها من الغرق في بحيرات التمزق، ويحفظ طاقاتها من التبدد في ساحات التآكل؛ ولهذا فقد وضعت أول سورة في القرآن حجر الأساس لوحدة المنهل والمنهج، وذلك بدعوتها للقراءة المستبصرة لآيات الله الشاملة، حيث يتمثل المنهل في قراءة آيات القرآن عبر التدبر، وتتجسّد وحدة المنهج في قراءة آيات الآفاق والأنفس عبر التفكر والتبصر، والعاصم في هذا المنهج هو أن ضابط القراءة ﴿باسم ربك﴾.

المَنهلُ ماءُ المَنهج:

من يقرأ سورة (الجاثية) بتدبر مستفيض سيتضح له بجلاء أن وحدة (المنهل) هو الغدير الذي يتصببُّ ماؤه على بستان (المنهج) فيسقيه ويرويه،

قال تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية: ٤-١١].

وبدون تعانق المنهل والمنهج، فإن بوصلة الهداية الحضارية ستنحرف، وسيحل بالناس عذاب من الرجز الأليم للتخلف!

هل لاحظت قارئي العزيز أن مصطلح (آيات) ورد في هذا المقطع الصغير ثماني مرات؟

كأن المولى عزَّ وجل يؤكد لنا أن التفكر في (آيات الله المنظورة) ثمرة التدبر في (آيات الله المسطورة).

اعتلاءُ منازل الرّبانية:

إن منازل الربانية منازل رفيعة تقرب المؤمن من الله عزَّ وجل، حيث يتخلق بأخلاقه ويتحلّى بتعاليمه في مَخْره لعُباب الحياة، وما يزال يرتقي درجات الإحسان حتى يحتل ناصية الربانية.

وفي إحدى آيات الكتاب المجيد إشارة قوية إلى أن هذه المنزلة الرفيعة، ثمرة للتناغم مع الكتاب الكريم تعلّماً وتعليماً، دراسةً وتدريساً، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، وفي تأخير ذكر (الدراسة) مع أنها سابقة على (التعليم) إشارة إلى أن المتأهلين للربانية مهما كان

علمهم فإنهم لا يتوقفون عن مُدارسة القرآن لعلمهم بأن معاني القرآن غير متناهية، وأن ثماره غير مقطوعة ولا ممنوعة!

رسوخُ العلم كمالٌ للتوحيد:

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ فإن العلم الراسخ الذي يدلف المرء إليه من أبواب متفرقة وبدون تحيزات مسبقة؛ يوصل صاحبه إلى فهم هذا الكون الدال على خالقه الأوحد، والذي لا يشاركه في خلقه أحد ولا ينبغي أن يشاركه في أمره أحد.

***

تلألؤ الإيمان

الإيمانُ زاد الحضارة:

إن الفهم الحقيقي للإيمان كما في الرؤية القرآنية؛ يجعل من فقه «عالم الغيب» أداةً للتعمق العملي في «عالم الشهادة»، حيث يَحضر بفاعلية في استصلاح الأرض وصناعة الحياة، مما يُمكِّنه من إقامة الحضارة المنشودة، ومن البروز في مقام الشهود الحضاري المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ..﴾.

وجْهَا التذكّر:

لأن الإنسان مخلوق من الحَمأ المَسْنون ومن نور الرحمن، فإن هذه الخِلْقة تنعكس على قيمه وحياته، فالتذاكر مثلاً له وجهان: وجْه صلصالي يتذكر أخطاء الآخرين ويَدّخر لهم الضغائن والأحقاد، ووجْه روحاني يتذكّر الله في سائر الظروف والأحوال.

وكلما تزوّد الإنسان من حاجات الروح؛ ازْدهَرتْ تقواه وازْدهَت خشيتُه، وكلما زاد تزودُه من حاجات التراب نَمَت ضغائنُه واستقرت أحقاده !

إبصار التذكُّر:

الروح المشرق للإنسان هو المصباح الذي يستنير به في رحلة سيره الكادح إلى الله، وعندما ينجح طائفُ الشيطان في مسّ الإنسان فإنه يعطل مصباح الروح عن الإضاءة، فيزيغ المرء حينها عن سواء السبيل، وربما تخبّط في ظلمات الأهواء وغرق في دياجير الشهوات.

وقد يكون المتقون عرضة لهذه الآفة، ولكنها تكون مشكلة عابرة ونادرة بالنسبة لهم؛ إذ سرعان ما يؤدي التذكُّر إلى توصيل شبكة الشخصية بمصدر الإنارة الروحية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

أعلامُ الإيمان:

لأعلام الناس وظائف مرئية وغير مرئية، ولأنهم يريدون استقرار الحياة وأمان الناس ابتغاءَ وجه الله، فإنهم يعتنون بالأدوار غير المنظورة لكنها مهمة في صناعة الحياة، كأوتاد الجبال المخفية في باطن التربة، وهي تساوي أكثر من عشرة أضعاف الجوانب الشامخة فوق سطح الأرض.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، فقدّم الجوانب المخفية وهي (الرواسي) على الجوانب البارزة وهي (الشامخات)، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه أعلام الإيمان من الناس دوماً، حيث يخفون كثيراً من الغروس في تربة الإخلاص، لتأتي الثمار جَنيّةً مباركة !

مُكابداتُ الترقّي:

إن النفس التي يمكنها الترقّي في مدارج العُلى هي الحريصة دوماً على الترفّع عن الرذائل وعلى الارتفاع بالفضائل. وذلك من خلال مجاهدة الشهوات ومكابدة مشاق الارتفاع.

ألا تُحسّ أيها القارئ الكريم بهذه المعاني من خلال الجَرْس الموسيقي لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، حيث تنبعث أنفاس الصّعود نحو الأعلى والترقّي في العلياء، وكأننا نسمع شهيق التخلية وزفير التحلية !

***

عجائبُ السُّوَر

ترتيبُ الشخصية:

كانت سورة (العلق) هي أول سور القرآن نزولاً، وثانيها هي (القلم) وهما دعوة لإرساء الأساس الفكري وبناء البعد العقلي في شخصية المؤمن عبر القراءة والكتابة، وثالث هذه السُّوَر هي (المُزّمِّل) التي ركزت على ترسيخ البعد الروحي، من خلال قيام الليل، ورابعها هي (المدّثر) التي اهتمت بتنمية البعد الجسمي، من خلال الإشارة إلى نظافة الجسم في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

وبهذا تكتمل الشخصية المسلمة، وتتعاون الأبعاد الثلاثة في إبراز فاعليتها التي ينبغي أن يصل متوسطُ فاعليتها إلى عشرة أضعاف فاعلية الشخصية غير المسلمة وذلك في مراحل القوة، ولا ينبغي أن تقل هذه الفاعلية في مرحلة الضعف عن ضعفي فاعلية غير المسلم، مهما يكون موقع هذه الشخصية والثغر الذي ترابط فيه، والمطلوب من كل مسلم أن يفعل على شاكلته، إذ أن لأصحاب كل مهنة درجات مما عملوا.

الفردُ مُضغةُ المجتمع:

من المعلوم أن السور المكية ظلت تتنزل لمدة ثلاثة عشر عاماً، بينما تنزّلت السور المدنية لمدة عشر سنوات، أما عدد السور المكية فهو خمسة وثمانون سورة والسور المدنية تسعة وعشرون.

فإذا كانت السور المكية تركز على بناء الفرد، على كثرتها وطول أمد تنزلها، فهذا يعني أن إصلاح الفرد أهم وأصعب، ولا غرابة في ذلك فإن الفرد هو مضغة المجتمع.

إن تقدم السُّوَر المكية على المدنية، يعني مما يعنيه أن التربية العملية على العقيدة لا بد أن تسبق تطبيق الشريعة، وأن الدعوة أساس الدولة، وأن إصلاح الإنسان من الداخل أصعب من إصلاحه من الخارج !

ولأن الدنيا لا تنفصل عن الأخرى في الرؤية الإسلامية، فإن العقيدة التي تبني الفرد من الداخل تزرع القناعة بتطبيق الشريعة من الخارج، والدعوة تقوم بغرس طاقة الرضى بما تقوم به الدولة من إقامة للصلاة (حقوق الله) وإيتاء للزكاة (حقوق الناس)، ومن أمر بالمعروف الذي يجلب المصالح والمنافع للناس ونهي عن المنكرات بما يتضمن من درء للمفاسد والمضار عنهم؛ ذلك أن من يطبق توجيهات الإسلام وتشريعاته خوفا من عامل خارج الذات وليس رغبة بما عند الله وخوفا مما بثه من وعيد وما يملك من عقاب، فإنه لا يؤجر ولا يستحق الرضي الإلهي في الآخرة، ذلك أن حضور عامل الإكراه يُسقط الثواب والعقاب الأخرويين.

الأوامر الافتتاحية:

توجد ست سور في القرآن الكريم افتتحت بأمر رباني، خمسٌ منها تبدأ بـ (قل) وهي مرتبطة بتقرير الوحدانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...﴾، وإبراز بعض عوالم الغيب كالجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ...﴾، وبيان خطورة الولاء والبراء: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ...﴾، والدعوة للالتجاء إلى الله من شرار الخلق من الإنس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ...﴾، وشرار الخلق من الجِنّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ...﴾.

والسورة السادسة هي الوحيدة التي لم تبدأ بتلقين النبي ﷺ ماذا يقول لقومه، ولكنها أمرته بالفعل مباشرةً، وهذا الفعل هو القراءة: ﴿ٱقْرَأْ ...﴾، وهي أول سورة بالإجماع في التنزل، فقد أمرت السورة الرسول بممارسة فعل القراءة فورا

بذاته؛ ذلك أن القراءة الواعية أساس متين للقضايا الخمس الواردة في المواضع الخمسة أعلاه، ثم إن القراءة هي مرقاة العروج إلى ذروة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ حيث الخيرية العميمة واعتلاء مقام الشهود الحضاري !

أسوارُ السُّوَر:

من تدبّر «سور» القرآن الكريم وتبرّك بها كما ينبغي؛ كانت له أسواراً تحرسه من الشرور، وصارت حصوناً منيعة تحميه من سهام الشياطين ووساوسها، وكانت شرفاً له في الدنيا والآخرة، ألم يقل الله عن القرآن بأنه شرف للمصطفى ﷺ ومن سار معه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؟، والذكر هنا هو الشرف.

ومما يؤكد ذلك أن السورة في اللغة تأتي بمعنى المنزلة الرفيعة، كما قال النابغة الذبياني:

ألم ترَ أن الله أعطاكَ سورةً ترى كلَّ ملكٍ حولها يتذبذبُ !

انشراحُ الصدور:

في سورة (الشرح) يثوي منهجٌ متكامل لانشراح الصدور، اشتمل على الأمور المعنوية والمادية التي تنقل الصدور من الضيق إلى السعة، ومن الحرج إلى الانبساط، ومن العسر إلى اليسر، ولهذا جاءت السورة في سياق الامتنان على النبي ﷺ.

وروي عن بعض السلف أنه تعرّض لشدة كادت أن تصيبه بالقنوط حتى كان يردد:

أرى الموتَ لمن أمسى على الذِّلة له أصلح

فرأى في المنام من يشير إليه بسورة (الشرح)، قائلاً:

ألا أيهـــــا المـــــرءُ

الـذي اهْـمّ بـه بـرّح

إذا ضـاق بـك الصـدْ

رُ ففكِّرْ في (ألَمْ نشرح)

فـإن العـسر مقـرو

نٌ بيُسْريـن فـلا تـبرح

وورد في بعض الآثار: «لو دخل العسر كُوّة لجاء يُسْران فأخرجاه».

***

معارجُ الدعاء

معراجُ الاضطرار:

إن المعراج العام لارتفاع الدعاء إلى الله هو معراج الاضطرار، إذ يصعد عليه المؤمن والكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ !

هكذا: (المُضْطَرّ) أياً كان دينه وطائفته ومهما كان تديّنه وصلاحه، فما دام قد لجأ إلى باب الله منكسرا يشكو ظلمه وقهره إليه فإن الله لا يَردّه خائباً !

معراجُ الانكسار:

الإنسان كائن ضعيف: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، وكلما نجح في الظهور أمام خالقه على فطرة الضعف الكامنة في تركيبته، وكلما استطاع إبراز انكساره بين يدي صاحب الملكوت والقدرة التي لا تضام؛ كان أقرب إلى الإجابة، والحاذق هو من أظهر ضعفه وأبرز انكساره، كما فعل نبي الله نوح عليه السلام الذي قال الله عنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾؛ فتقرّب إلى خالقه بقهره واتخذ من ضعفه قربة إلى ربه.

معراجُ الاستجابة:

لا يمكن أن يجيب الله دعوة من يعرض عن هداه ويأنف عن طاعته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فقد وضع الله الاستجابة لتوجيهاته شرطاً لقبول الدعاء.

وبمعنى آخر فإن الله لا يستجيب إلا لأحياء الأرواح والقلوب، ولذلك لا بد قبل استجابة الدعاء من استجابة الناس لتعاليم الله التي تُحييهم، كما ورد في قوله

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، ومن ثم فإن من استجاب لنداء الله في رخائه استجاب الله لدعائه في شدته، ومن أهم علائم الاستجابة لله في الرخاء الحرص على أكل الحلال والبعد عن الحرام.

معراجُ الإخلاص:

إن الله يَصدُق من يَدْعونه بصدق، وهذا يقتضي خلو القلب من شوائب الرياء واوشاب النفاق، ولذلك أنكر الله على من يدعون في المساجد غيره، فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾، وقال لنبيه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، وذكر سبحانه وتعالى أن حُرقَة الضرورة تدفع المشركين إلى إخلاص الدعاء لله في الشدائد، قال عز وجلّ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وحاجج المشركين بهذه الحقيقة فقال: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ ﴾، وأصدر أمره الأبدي الحاسم:

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، حيث جعل الدعاء معادلاً موضوعياً للدين كله، فقد قال: ﴿مخلصين له الدين﴾ ولم يقل: مخلصين له الدعاء؛ ذلك أن شروط الدعاء متضمنة لكافة الواجبات التي ينبغي الاستجابة لله فيها !

معراجُ التضرُّع:

لا يكفي أن يكون المرء مخلصا لله، بل ينبغي أن يُظهر كمال التضرّع، بحيث يتقلّب بين الخوف والطّمع، ويتنقّل بين الرغبة والرهبة، حتى تنفتح له أبواب السماوات، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ

فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾، وأمرهم قائلاً: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، وعن الناس عامة قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ؟!

معراجُ الأسماء الحسنى:

لله أسماء حسنى وصفات أسنى، ينبغي أن تُتخّذ مقاليد لفتح أبواب القدرة الربانية واستنزال الاستجابة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾، ولاسيما الاسم الأعظم الذي يختص بأعظم أبواب الاستجابة، قال تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

وبالطبع فإن هذا المعراج لا يجدي شيئا إن لم تكن الشروط الأساسية لاستجابة الدعاء متوفرة.

معراجُ الأوقات:

الدعاء مثل الذكر في إطلاقهما، حيث يمكن أن تدعو الله في أي وقت من ليل أو نهار، ولكن هناك أوقات لها آذان شديدة الإصغاء لأصوات الداعين، وتكون الإجابة فيها أرجى، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾، وهذه اللفتة إلى الوقت في هذا المقام تفيد التشريف والتكريم، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

***

مَنابتُ السُّجود

محطةُ التذلُّل

إن أبرز محطات التذلُّل بين يدي الله تعالى هي محطة السجود؛ لأنها موجودة في قلب الصلاة التي هي عمود الإسلام وركنه الركن والصلة المباشرة بين المخلوق وخالقه، وفيها إظهار تمام الذل والانكسار بين يدي الرحمن، ثم إن السجود عبادة مشتركة مع سائر الموجودات الكونية التي تسجد في محرابه، مُسبّحةً بحمده، ولهذا كان غير الساجد لله متكبراً عليه، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فُصِّلت: ٣٧، ٣٨].

السُّجودُ حياة:

من يقرأ آيات السجود بتدبر وإمعان؛ يدرك أن السجود بين يدي الله خشوعاً وخضوعاً يهيئ عَرَصَات القلب لتنزّل شلاّل القرآن عليه، فتهتز أرجاؤه بعلامات الحياة وتُزهر مشاعره وتتساقط ثماره على كافة الجوارح والأعضاء.

وربما كانت هذه هي الحكمة من إنزال آية المطر وحياة الأرض؛ بعد آيات السجود الآنفة الذكر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وهنا يظهر التشابه الكبير بين الحياة المادية والحياة المعنوية، وتظهر الحكمة من أمر القرآن بالتفكر في آيات الله الكونية وآلائه الآفاقية.

وقد أثبتت الوقائع أن القلوب الخاشعة إذا تَنزَّلت عليها آيات الهداية اهتزَّت الْتياعاً وارتياعاً، وأنبتت من كل خير عميم.

سجودُ الصُّعود:

إن الإخبات إلى الله في محراب الحياة هو معراج الصعود إلى الله، وسبيل الارتقاء إلى مرضاته، ومرقاة الوصول إلى جناته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، والخبت في اللغة هو المنخفض من الأرض، ومن ثم فإن الإيمان وعمل الصالحات اللذين يُثمران اطِّراحَ المؤمن في باب ربه وخضوعه التام بين يديه، هو الذي يضمن له الارتقاء إلى عرش رضوانه وجنان خلده.

ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، فقد جعل السجود معراج الصعود، حيث الاقتراب من رضوان الله والولوج إلى دار نعيمه.

حصنُ التضرُّع:

التضرّع إلى الرحمن هو ضمانة التدرّع من الشيطان، ولذلك كان التضرع هو القاسم المشترك بين الذكر والدعاء، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ وقال: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، ذلك أن التضرع هو كمال التذلل وغاية الانكسار، مما يؤدي إلى تنزّل غوث الله الذي يفتح لك الحصون المغلقة ويمنحك ما تريد من الدروع التي تحميك من كيد الشياطين ومكر الأباليس، وتردّ عنك سهام الأعادي وغوائل الأيام.

عمودا الإصلاح:

لا يمكن أن يصبح المسلم مصلحاً إلا إذا انتصبت استقامته على عمودين يقوم عليهما مبنى الإصلاح:

-العمود النظري: وهو دعوة الناس للتمسك الواعي بتعاليم القرآن الكريم والالتزام الصارم ببوصلة هدايته والسير خلفه حتى الوصول إلى ذروة (التي هي أقوَم)، وهذا يُستفاد من جملة ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، حيث الفهم الدقيق والسير الحثيث.

-العمود العملي: وهو إقامة الصلاة بأركانها وشروطها المادية والروحية والحثّ على استحضار معانيها وتطبيق مقاصدها. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

***

ظِلالُ الدُّعاء

دعاءُ الأحرار:

إن دعاء الأحرار باختيارهم رغم توافر الخيارات أمامهم أفضل من دعاء المُضطرّين، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي لا تكن كيونس الذي لم يصبر كأولي العزم من الرسل وذهب مُغاضباً حنقاً من قومه، ولما وقع في البحر وابتلعه الحوت نادى ربه وهو في الأعماق كسير حزين أو وهو غاضب ومغتاظ من الذين رموه في البحر. ويبدو أن النهي للنبي ﷺ يشمل الحنق والدعاء الاضطراري بعد فقدان الخيارات نتيجة القصور أو التقصير اللذين لا يمكن لبشر أن ينجو منهما بصورة دائمة.

ومهما يكن تفسير الآية فإن الصبر مع الدعاء في حالة الحرية والعافية أفضل من دعاءِ المكلوم المكظوم، والله أعلم.

يقول ابن القيم: «والمقصود أنه سبحانه تعالى أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمة اختياراً، وهذا أكمل الصبر»[1]

الدعاءُ العملي:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، إبراز لأهمية (الدعاء العملي) في تحقيق (الدعاء القولي)، فإن الله قريب من عباده، وقادر على تحقيق مطالب خلقه، والدعاء العملي هو الأخذ بالسنن والتسلح

(١) ابن القيم: التفسير القيم، ص ١٠١.

بالتقوى؛ بحيث لا يرى الله عباده في مواطن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ...﴾، ولا يفقدهم في مقامات: ﴿وَأَعِدُّوا ...﴾، وهو ضروريٌ لقبول الدعاء القولي، ولذلك قال تعالى:﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ...﴾، ذلك أن القرآن أعلى من شأن العقل والعمل بالأسباب ورتب النتائج على أسبابها، بل إن القرآن نفسه معجزة معنوية وليس خارقة مادية كمعجزات الأنبياء السابقين، ومع ذلك فإن قصص الأنبياء التي أوردها القرآن تؤكد أن الدعاء العملي مقدمة ضرورية لتحقق الدعاء القولي، وسنتطرق لهذا الأمر في مقامات عدة من هذا الكتاب.

إجابةٌ بلا استجابة:

ما أشد ما نقع فيه من غرائب وانفصامات، فإننا عندما ندعوا الله نشترط عليه الإجابة، مع أننا لم نُحقِّق شروط الاستجابة التي أشار إليها المولى عزّ وجل بقوله:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

قُرَّةُ الأعيُن:

من صفات عباد الرحمن الذين سيجزون الغُرف العالية من الجنة؛ اعتناؤهم بتربية وتزكية أزواجهم وذرياتهم:﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، وقد استخدم القرآن الفعل المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ الذي يفيد الديمومة والاستمرار، ذلك أنهم لا يزالون يدعون الله أن يهبهم قُرّة الأعين كلما مارسوا تربيةً أو تزكية، وهو الدعاء العملي الذي يتم فيه استخدام أسباب الوصول إلى المراد مع دعاء الله بتحقيقه، كما يفعل المصلي عندما يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو في قلب الهداية بحكم أن الصلاة عمود الدين، وذلك لإدراكه أن المتصرف

الحقيقي هو الله، وأن الأسباب وحدها لا تملك ضراً ولا نفعا، وذلك على طريقة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، بمعنى أن الدعاء في مثل هذا المقام استنزال للتوفيق الرباني وتبروء من الحول والطول وتوقٍ من الوقوع في اتخاذ الأسباب أندادا لله، كأنها هي من تخلق وترزق أو تدفع الضر وتجلب النفع !

وبهذا فإن الدعاء الآنف الذكر يمثل دعوة غير مباشرة إلى تكميل الأزواج والأولاد بكل قيمة وتزيينهم بكل خلق، بحيث يصبحون كما تهوى قلوب الآباء والأزواج، فتقر بهم الأعين وتبتهج بهم النفوس، ولا تنتقل لترى ما عند الآخرين بأعين الطمع والحسد حتى تكاد أن تُزلقهم !

***

مقاصدُ الصلاة

مقصد التذكُّر:

لقد شرع الله الصلاة لمقاصد عظيمة، أهمها مقصدان: تَذكُّر الله والنهي عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ...﴾، أي ولذكر الله المُتأتي في الصلاة أكبر من مقصد النهي عن الفحشاء والمنكر، ولقد كنتُ بحمد الله أفهم الآية هكذا، رغم مخالفة فهمي لبعض أقوال المفسرين، حتى وجدت ابن القيم في تفسيره القيم يؤكد أن هذا المعنى هو ما يراه شيخ الإسلام ابن تيمية.

ويبدو لي أن الآية قدَّمت النهي عن الفحشاء والمنكر لأنه تخلية، بينما ذكر الله هو التحلية التي تعقبها.

محطّة التذكُّر:

في حياة آدم الأولى كان الابتلاء بسيطاً وهو عدم الأكل من الشجرة المحرمة، لكن آدم أكل من تلك الشجرة؛ نتيجة ضعف ذاكرته وضعف عزيمته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، حيث عهد إليه الله بأن لا يأكل من الشجرة التي حرمها عليه، لكن الشيطان نجح في التسلّل إليه من ثقبي النسيان وضعف العزيمة، مؤكدا له أن هذه الشجرة هي شجرة الخلد وأنه لن يموت إن أكل منها، وأتبع ذلك بأن أقسم له ولزوجه حواء بأنه لهما من الناصحين الحادبين!

ولكي يغلق الله هذين الثقبين في تركيبة الإنسان؛ فقد شرع أموراً عديدة، أهمها الصلاة التي يمكن اعتبارها المحطة الأساسية للتذكر، ولذلك قال تعالى

لحبيبه ﷺ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، أي من أجل تذكُّري، وتذكر الله يكون بحضور العقل وخضوع القلب، ولذلك فإن من تذكَّر الله في محراب الصلاة يتذكره الله في محراب الحياة: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ومن تذكّره الله فلن يَكله إلى نفسه ولن يدع للشيطان عليه سبيلاً، ومن ثم فلن يقترف الكبائر التي تذهب بأصحابها إلى النار، لأنه بالتذكر الشامل صار مؤمناً، وهذا ما عناه ﷺ بقوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...».

تحليقُ الأرواح:

عندما (يُرخي الليل) سدوله(ترتخي الجوارح)، لكن الجوانح الممتلئة بأنوار الإيمان تشتد مخايلُها، فتحلق في الأجواء، متصلةً بالروح السماوي مستمدةً منه الزاد والضياء، مخافةَ أن يَنْفد في النهار فتسقط الروح مغشياً عليها، ليتسيَّد عليها الجسم ويعلوها التراب !

ومع أن للروح محطات نهارية لكن المحطة الكبرى والزاد الأعظم لا يتأتّى إلا بالليل، ولهذا قال سبحانه وتعالى لحبيبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا...﴾.

التترُّبُ المادي والتنوُّرُ الروحي:

إن السجود هو أعلى الذُّرى التي يعتليها الإنسان متقربا من ربه، ذلك أنه يتضمن تذكير الإنسان بأصله الترابي حينما يهوي الترابُ على التراب ويلتصق الصعيد بالصعيد، فيذوب خجلاً أمام ربه ويسيل تذللاً بين يديه، وبذلك يقترب منه كثيراً فيقتبس النفحة التي تمثل زاد النفخة الروحية الأولى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾.

التزكّي والتّدَسّي:

الإنسان مخلوقٌ رغم أنفه من التراب والروح، لكنه بإرادته يملك أن يتزكى في آفاق الروح، أو يتدسَّى في أعماق التراب، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي أفلح من زكّى نفسه بأنوار السماء وخاب من دسَّاها في عتمة التراب، فالتدسية هي الإخفاء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾.

وما تزال النفس تتزكى وتترقى في درجات الطاعة أو تتدسَّى وتتدحرج في دركات المعاصي.

***

عناوين قرآنية

مخارجُ التقوى:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ معاني غير متناهية، ومنها:

- من اتقى الله في الصلوات، وذلك بأن لا يفقد الله حضور عقله ولا قلبه في مقامي الوعي والخشوع، ولا يجدهما في أودية السهو والغفلة؛ فإن الله سيجعل له مخرجاً من رغائب النفس ونزغات الشيطان، ومن مشاكل الحياة ومشاغلها، طيلة الأوقات الممتدة ما بين كل صلاة وصلاة!

- من اتقى الله في صومه بإتيان مأموراته واجتناب مناهيه؛ فسيجعل الله له مخرجاً في كل معضلاته ما بين رمضان ورمضان، ولن يخذله أبداً .

- من اتقى الله في حَجِّه بتطبيق الأوامر واجتناب الزواجر، فإن الله سيعطيه زاداً يجعل له فيه مخرجاً من كافة المآزق في ما بقي من عمره، ولن يكله لنفسه ولا لأحد من خلقه ولن يَتِرَه عمله أبداً !

مُستطاعات القوة:

أمر الله الأمة المؤمنة أن تُعدّ ما استطاعت من مقاليد القوة بما يناسب كل زمان ومكان، فقال عزّ من قائل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾، وكلمة قوة وردت بصيغة (النكرة) لكي تستغرق كل قوة تسهم في تثقيل الموازين الحضارية للأمة، سواء كانت قوة ثقافية أو علمية أو إعلامية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية أو غيرها، وبالطبع فإن مفردات هذه القوى يمكن أن تصبح بالآلاف في عصرنا.

أشرافُ التخصصات:

لأن الإسلام يُقدس العلم ويُقدِّر التخصصات، فقد شرّف أصحاب كل تخصص بعلمهم حينما قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهي جملة جامعة كعادة القرآن في اختزال مئات المعاني ضمن كليمات قليلة، كأنه يقول: اسألوا الأطباء في تخصصاتهم الجزئية الدقيقة، واسألوا المهندسين في تخصصاتهم الفرعية العميقة، واسألوا أهل السياسة في مسائل الحكم والنظام وتدبير شؤون الناس، واسألوا أهل الاقتصاد في مشاكل المال والمعاملات والارتفاع بالمستوى المعيشي للناس، وأسألوا أصحاب العلوم الشرعية في قضايا العلوم الشرعية كافة، واسألوا أصحاب كل حرفة في مجال درايتهم وخبرتهم، فلن تجدوا في كل تخصص أعلم من أصحابه ولن تجدوا أخبر ممن انغمس في ذلك العمل بتاتا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

التّحدّثُ بآلاء الله:

أمر تعالى حبيبه محمداً ﷺ أن يُحدِّث الناس بنعمة الله عليه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ومع أنه قال: ﴿بِنِعْمَةِ﴾ بالمفرد إلا أنه قصد هنا كل نعمة، ذلك أن هذا الاسم النكرة هو اسم جنس يفيد كل نعمة يتنعم بها الإنسان، ومن المعلوم أن آلاء الله كثيرة ومِنَنَه وفيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، سواء كانت هذه النعم قوة في العلم ورجاحة في العقل، أو إيماناً في القلب وشفافية في الروح، أو وسامةً في المظهر وبسطةً في الجسم، أو غزارةً في المال وكثرةً في الأولاد.....الخ.

ولا شكّ أن التحدث عن نعم الله يكون بوسائل شتى، ابتداءً من امتنان القلب على المستوى الشعوري العميق، ومرورا بثناء اللسان على المستوى القولي، ووصولاً إلى شكر الجوارح على المستوى العملي!

مَنْعُ المَواعين:

وصف الله في سورة (الماعون) المكذبين بالدين بأوصاف عديدة، من ضمنها أنهم ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾، والماعون هو كل وسيلة أو أداة أو آلة يمكنها المساعدة في جلب مصلحة أو درء مفسدة عن الناس، ولا شك أن بإمكان المرء أن يُعدِّد في هذا الإطار مئات الأشياء التي يمكن إدخالها تحت مصطلح (الماعون).

***

مَصاعدُ الاستعانة

سلاحُ الإرادة:

إن امتلاك أزِمّة الدنيا ومقاليد الآخرة رهينٌ بامتلاك الإرادة الذاتية القوية، والتي تنبعث من ثنايا العلم النافع والفهم الدقيق، وتنبثق من قلب الإخلاص الخالي من الشوائب والإتقان الخالص من الغش، وترتوي من نهر الاستعانة الربانية، حيث يتبرّأ الفرد من حَوله وقوته ويَركن إلى ركن عظيم.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ...﴾ [الشورى: ٢٠]، ونلاحظ هنا العدل الرباني في العطاء الدنيوي، حيث ينسكب العطاء على قدر العمل مهما كان المرء بعيداً عن الله ومكذباً بآياته، في مقابل الفضل الإلهي الذي يتجسد في العطاء الأخروي: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

إكرامُ الكرامة:

ليس كل من أكرمه الله قد كرَّمه بالضرورة، فإن الرزق ثمرة الأسباب، وإجابة الدعاء ثمرة الاضطرار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ إلى أن قال: ﴿ كلاّ﴾، أي ليس الأمر كما تظنون، فليس إكرامي علامة تكريمي دائماً، إذ قد يكون استدراجاً وقد يكون ابتلاء.

ولما كان الإكرام ماديا فإن الله يعطيه لجميع خلقه ما داموا قد توسلوا بالأسباب، أما التكريم فهو معنوي وقد أعطاه الله في مبدإ الخليقة للبشر جميعا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، لكن الذين تمردوا على الفطرة وتنكبوا الطريق فإن التكريم يغادرهم ويصيرون كالأنعام بل أضل؛ لأنهم يستثمرون العقل في الإمعان في التسفل والانحطاط حتى يستقروا في أسفل سافلين!

وإكرام التكريم ينحصر في الهداية التي تستجلب المزيد من الهدايات، والطاعة التي تتسبب بالمزيد من الطاعات، والاستعانة التي تستنزل المزيد من العنايات الربانية واللطائف الرحمانية.

المشيئتان الجارية والخارقة:

لله سبحانة وتعالى مشيئتان: المشيئة الجارية وهي السنن والنواميس التي تسير عليها الحياة الطبيعية، والمشيئة الخارقة التي تتكسر فيها قوانين الكون وسنن الحياة بمشيئة الله الخارقة التي تقوا للشيء كن فيكون وهي (المعجزات).

ومن الآيات التي جمعت المشيئتين قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فالعداوة بين أهل الحق وأصحاب الباطل والتدافع بينهم هو من السنن الجارية، بينما بإمكان السنة الخارقة أن تنتصر لأهل الحق بكلمة كن، لكن إرادة الله قضت بأن هذه الحياة للابتلاء، ومن ثم لا بد من استمرار التدافع بين الحق والباطل وفقاً للأسباب والنواميس المحايدة والتي جعلها الله حاكمة لهذا الكون.

ومن المؤكد أن الاستعانة الصحيحة بالله تقتضي استثمار السنن الجارية، واستجلاب السنن الخارقة، من خلال الانهماك بالعمل الدؤوب في عالم الشهادة، والإخلاص في استمطار المعونة الربانية من عالم الغيب.

النصر المُظفّر:

سيكون نصرنا (مُظفراً) عندما نتسلح بكافة الأسباب والوسائل، ونتوسل بشتى الطرائق والأساليب، وعندما نستكمل عدّة الإيمان ونبلغ كمال التوكل.

عندها سنجد أسباب الأرض تقاتل معنا وملائكة السماء تفتح لنا أبوابَ نصرٍ مبين بدون قتال، كما حدث للمسلمين في فتح مكة سنة ٨هـ، ولذلك سمّى القرآن نصر مكة ظفرا، عندما استخدم تعبير ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ في هذا الموضع فقط من القرآن، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، فلقد كان نصراً مدوياً بدون قتال، وكان نصراً (استراتيجيا) انداحت بعده قوة المسلمين في كل أنحاء الجزيرة العربية، وانسابت الدعوة بين القبائل، واتسعت رقعة الدولة بسرعة رهيبة!

القولُ الثقيل:

مع أن الإسلام دين الفطرة وليس فيه مشقة أو تعسير، إلا أن العبادة الشاملة في محراب الكون أمر يحتاج إلى صبر ومصابرة، وذلك بتطبيق القرآن في سائر مجالات الحياة، وذلك عبر عمليتي الاجتهاد النظري والجهاد العملي، وفي كليهما بذل للجهد واستفراغ للوسع، ولهذا وصف الله القرآن بأنه قول ثقيل، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، ومهما كانت إرادة المؤمن قوية وطاقته كبيرة فإنه يحتاج إلى الاستعانة بالله على هذه العبودية، ولهذا لا يزال المُصلّي في كل ركعة يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي ونستعين بك في القيام بهذه العبادة وفي فهم مقاصدها واستنزال أسرارها، كما كان ﷺ يستجلب معونة الله بقوله في دُبُر كل صلاة: «**اللهُمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وتتوزع الاستعانة بين الثوابت والمتغيرات، ففي مجال الثوابت نحتاج إلى المعونة، وفي مجال المتغيرات نحتاج إلى التوفيق.

***

طبائعُ الطّين

البُخلُ البشري:

إن التركيبة الترابية للإنسان أورثته الكثير من الآفات والطبائع الطينية، ومن هذه الآفات البخل والتقتير.

ويصل التقتير - كما بينه خالق الإنسان - إلى حد يثير الاشمئزاز والذهول، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ولاحظوا معي التعقيب الرباني من صاحب الخَلْق والعلم، والتأكيد على أن طبيعة التقتير داخلة في تركيبة بني الإنسان، وكما تُبين آيات أخرى فإن الانفكاك من هذه الطبائع لا يمكن أن يتم إلا تحت تأثير حرارة الإيمان الذي يعيد تشكيلة المؤمن، فيفصل المعادن الرديئة عن المعادن النفيسة، لينفي الخبث ويبقى ما هو نافع من الطبائع.

بين التّزكّي والتدسّي:

تمتلك النفوس البشرية مقدرةً كبيرة على العروج بـ(أجنحة الروح)، وعلى الجنوح بـ (أقدام التراب)* والانحطاط بـ (أرجل الطين).

ومن المؤكد أن الأجنحة والأرجل في متناول الإنسان، وهو من يختار التزكّي أو التدسّي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

آفةُ الاستعجال:

العجلة عند الإنسان آفة تنبعث من بين ركام التراب، فتدفعه لارتكاب أخطاء كثيرة ومنها تفويت كثير من الخيرات، كالمرور العابر على دوحات الآيات الربانية، دون اشتمام روائحها العبقة واقتطاف ثمارها الجَنيّة.

ولهذا قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، إذ تحتمل هذه الآية التحذير من المرور السريع على آيات الله دون تدبر وتفكر، وكأنها دعوة إضافية للتأني في القراءة والاستبصار بهداياتها، مثل قوله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

إلقاءُ المعاذير:

إن في تَحمُّل المسؤولية مشقة كبيرة، لأنه صعود نحو الأعالي وسموق نحو الذُّرى؛ ولذلك يتهرب كثير من الناس من تحمّل المسؤولية، لاجئين إلى مخارج التعذُّر ومشاجب التبرير.

وعن هذه الطبيعة الثاوية في بني آدم قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، إذ أن الإنسان بطبيعته يكره تحمّل المسؤولية ويُفضِّل التدحرج السريع وراء معاذيره التي ألقاها، رغم أنها تهبط به نحو الأسافل وتهوي به في الأعماق!

عُشّاقُ العاجلة:

يوجد في التركيبة الطينية للإنسان ما يجعله يحب العاجل على حساب الآجل، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

وأهم ما يحبه الإنسان في عاجلته هو المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، ولا يمكن لجْم شهوة الحب هذه إلا بإشعال أشواق الروح نحو ما هو أغلى وأبقى، حيث: «ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعيُن».

***

مُنْزلَقاتُ الاستدراج

حِمَمُ السَّعير:

لا يزال المجرمون يتمادون في إجرامهم؛ حتى يتلظَّوا بضلالهم ويتسعّروا بعنادهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾، والسُّعُر هنا هو العناد الذي يُرديهم في لُجّات الجحيم ويغمسهم في حِمَم السّعير!

الحذرُ من الاستدراج:

حذارِ من الغفلة التي توقعك في المعاصي مع تتابع النعم وتكاثر المنن، فلعلَّ ذلك من صُوَر الاستدراج لك نتيجة ذنوب قارفتها، ألم يقل الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإن المغفلين يظنون أن غزارة النِّعم دالةٌ على انهمار سحائب الرِّضى؛ فيزدادون غياً وبغياً!

ركوبُ الأحوال:

يقرر القرآن أن بقاء الحال من المحال، سواء كان حسناً أو سيئاً، قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي حالاً بعد حال، وهذه الآية تفتح أبواب الآمال واسعة، حيث سينتقل الفقير إلى الغنى، ويستعيد المريضُ الصحة، ويصبح الذليل عزيزاً والضعيف قوياً، وسينقلب الهوان إلى عز وتستحيل الهزيمة إلى نصر.

وفي ذات الوقت فإن هذه الآية تتضمن إنذارا لمن يَغرقون في بحار النعم بأنهم مُعرضَّون للابتلاء بأضداد ما يتنعّمون به، لأن هذه سنة الله، فالحياة مجموعة من الابتلاءات ذات السراء والضراء، وبينما يتقلب المؤمن في هذا الابتلاء بين

الشكر والصبر، يتقلب غيره بين البطر والكفر. ورحم الله الفاروق عمر الذي قال: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب»!

خلالُ المتكبر:

ما تزال للمتكبرين صفات ثابتة، وقد أوردها القرآن بشيء من التفصيل مع أنه يعمد في الغالب إلى الإجمال، مثل: لَيّ صفحة العُنق: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وتصعير الخد، والاختيال في المشية، وإظهار الفرح الدافع للبطر على الناس، والفخر بالأصول والإنجازات كأنها من خلقه هو، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

كتمانُ المحايدين:

عندما يتعلق الأمر بالضرورات، وحينما يحدق الخطر بالأنفس والأعراض والأموال المصونة، فإن الحياد يصبح خطيئة لا تُغتفر ويصير الكتمان جريمة تستحق العقاب، فها هو مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه وسط بيئة مترعة بالكراهية للايمان وتتسعّر بالعداوة الشديدة للمؤمنين، يخرج عن كتمانه عندما شعر بأن الملأ يأتمرون بموسى، فأخبره بالمؤامرة وانطلق إلى قومه ناصحاً، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

***

سنن الاصطفاء

اصطفاءٌ مفتوح:

يصطفي الله من رسله من يشاء، لكن الاصطفاء بالنسبة لعامة البشر يبقى مفتوحاً وفق سُنن محايدة، بحيث يمكن لكل إنسان أن يدلف إلى دائرة الاصطفاء من بوابة الالتزام بالشروط المطلوبة والتأهل لتبوإ مقام الاصطفاء.

نفهم هذا المعنى من ظلال قوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ومن هنا يمكن القول بأن كل من اعتنق الإسلام بصدق وأخذ القرآن بقوة؛ فإنه يصبح من المصطفين الأخيار.

والنموذج العملي الأشد سفورا في القرآن الكريم هم آل عمران الذين اصطفاهم الله لاتسامهم بصفات الاصطفاء التي تعرضت لها السورة بصورة عجيبة في عديد من مقاطعها، وربما كان هذا هو السر وراء تسمية السورة باسمهم (آل عمران)، وكأن مقاطع السورة تتضافر كلها لتقول: هذه هي (مؤهلات الاصطفاء لآل عمران).

حيادُ السُنن:

السُّنَن هي الطرق المؤدية إلى عمران الأرض وصناعة الحياة وفق مراد الله الذي يساوي بين خلقه ولا يقبل منهم علوا في الأرض ولا فسادا جاعلاً العاقبة للمتقين، وهي سنن محايدة لا علاقة لها بالإيمان أو الكفر.

ومن ثم فقد يسلكها الكفار ويصلون إلى عمران الأرض ويتمكنون من صناعة الحياة، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

إن السنن هي الأنهار التي يتدفق من خلالها عطاء الله إلى البشر قاطبة، ولا علاقة لهذا العطاء بالإيمان والكفر بل بالصلاح والفساد، والصالحون هنا هم الذين يرتادون سُنن إعمار الأرض وإصلاح الحياة، وقد كتب الله وراثة الأرض لهذا الصنف من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

تمكينُ الصالحين:

عند استكمال شروط التمكين واستيفاء مفردات النصر، فإن سحائب التأييد الإلهي ستسكب قطرات النصر وغيث التمكين، ولو كان الآخذ شخصاً كيوسف عليه السلام الذي كان أمة في أخذه بأسباب التمكين لمن تمعن في قصته الواردة في سورة يوسف، وبذلك استحق التمكين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١]، ومثله ذو القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف:٨٤]، وسورة الكهف زاخرة بأسباب التمكين وأسراره لمن أطال فيها التدبر.

المغضوبُ عليهم:

إن من يفسق عن أمر ربه، ولو كان مسلماً، عن طريق كتمان الحق وتحريف الآيات بالتأويل الباطل، وتلبيس الحق بالباطل، وبيع الآيات بثمن مادي، والتحايل على المحرمات، وتحريم ما أحل الله أو العكس، وموالاة أعداء الله، وإساءة الأدب مع الله؛ فقد اشترك مع اليهود في استحقاق الغضب الرباني واللعنة الإلهية.

إنها سنن ماضية لا تحابي أحداً، ولذلك لم يُسمِّ الله المنحرفين عن الصراط المستقيم باليهود والنصارى بل بالمغضوب عليهم والضالين، حتى تبقى

الصفات عامة، من اتصف بها صار من المغضوب عليهم أو الضالين ولو ارتدى ثياب الإسلام وتسمّى باسمه ووقف تحت رايته !

تدهورُ الدهرين:

إن اتباع الظنون والأوهام يمكن أن يُردي الإنسان في مهاوي التخلف إلى أن يصل إلى الدرك الأسفل من الكفر حيث الفكر الدهري السادر في غيّه والناسي لآخرته.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]

***

مِنَنُ الرّحمن

سحائبُ السخاء:

إن سحائب الله ملأى بالخيرات، وليس لعطائه حدود ولا تقف أمامه موانع: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

لكن هذه السحائب تحتاج إلى استمطار، عبر بوارق الشكر التي تستجلب السخاء، وعبر رعود الدعاء التي تستسقي السماء: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ولا شك أن المزيد من العطاء يستوجب المزيد من الثناء، ويحتاج الكثير من الرزق إلى الكثير من الشكر.

المُنعِم المُتفضِّل:

مهما بذَل الإنسان من جهود وبذَر من أسباب، ومهما مشى في مناكب الأرض ناظراً وسبَح في أمواج النهار عاملاً؛ فإن الهادي إلى هذه النعم والخالق لها هو الله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وينطبق ذلك على الآلاء المادية والمعنوية أو الدنيوية والدينية، فإنه هو من خلق فسوّى وقدرَّ فهدَى.

وقد خاطب ابنُ عطاء السكندري المريدَ فقال: «إذا أراد أن يُظهر فضله عليك، خَلَقَ ونَسبَ إليك»!

مِننُ الله:

مِننُ الله لا تُحصى ونعمهُ لا تُعدّ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ومع أنها لا حصر لها إلا أن الله سمّاها باسم الجنس: نعمة؛ ذلك أن المُنعم واحد، ولأنها تتضافر على إسعاد الإنسان وإشاعة البهجة في حياته، إن تعامل معها وفق منهج السماء!

نعمةُ السّتر:

إن كل جميل يراه الناس فيك إنما هو مرآة ستر الله عليك، وهذا ما لا ينتبه له كثير من الناس، ولذلك لا يشكر الله على هذه النعمة وأمثالها إلا أقل الناس، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ !

التكبُّر بالحق:

توعد الله المتكبرين بأنه سيصرفهم عن آياته: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فهل يوجد تكبُّر بحق؟

يبدو لي أن مفهوم المخالفة يشير إلى وجود صورة من التكبر بحق، وهو الاعتزاز بإكرام الله له، والذي تُثمره شجرةُ الشكر لنعم الله والاعتراف بآلائه، مما يجعله مطيعاً للمنعم، فيشتد على أعداء الله كما يسيل رحمة على أوليائه، بينما ينسب المتكبر النِّعَم إلى نفسه فلا يشكر الخالق ولا يتواضع للخلق.

ولذلك فإن اختيال المتكبرين ينعكس على تعاملهم مع آيات الله حيث يُعرضون عنها ولا يستفيدون منها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، وكأنهم يمشون على شق ملتفتين عن هذه الآيات ومتجاهلين لها!

***

أوثانُ الهَوَى

ضلالُ الأهواء:

إن من اتبع ضلالة أو سار خلف طاغوت، يمكن إرجاعه إلى بستان الهداية، إن تمّ التسلّح بمنهج الحكمة، غير أن من الصعب هداية صاحب الهَوَى، لأن سَيرَه مُزيَّنٌ له، ومسيرته مُحبَّبةٌ إليه، فما أصعبَ الفطام عليه !

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، والسؤال هنا للتعجب من هذا الصنف من الناس الذين قادتهم أهواؤهم بعيدا عن الهداية الربانية حتى وصلوا إلى محطة اللا عودة، وكأنه يقول فلا أضلُّ ممن كان هذا حاله.

ولفت الله نظر نبيّه إلى صعوبة هداية هذا الصنف من الضالين، فقال له: ﴿أرأيتَ من اتّخذ إلهه هواهُ أفأنْتَ تكون عليه وكيلاً﴾؟! [الفرقان: ٤٣].

دعاءُ الاستقامة:

الاستقامة سيرٌ ثابتٌ على الصراط القرآني الواضح، وهو طريقٌ شديدُ الدِّقة في المعتقدات والأقوال والأفعال، وباسقُ الارتفاع في المشاعر والأخلاق، ومحفوفٌ بالمَكاره والأخطار، وتَهُبُّ عليه رياح الأهواء وأعاصير المؤامرات من كل جهة واتجاه.

ولذلك فإن الإنسان يحتاج إلى التسلح بالعلم النافع والتحلي بالأخلاق الحسنة، وبدون ذلك سترميه (عواصفُ الرياء) في أودية (المغضوبِ عليهم)، وقد تقذفه (أعاصيرُ الجهل) في (مهاوي الضالين).

ولهذا كان دعاء الاستقامة والثبات واجباً في كل ركعة من الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، ذلك أن الأمر جدُّ خطير !

أصنامُ الأهواء:

حذّر الله عزَّ وجل من أن اتباع الأهواء ومجانبة هدى الله؛ يجعل من هذه الأهواء إلهاً من دون الله، وعندها يتعطل جهاز الوعي مهما كان علم الإنسان، حتى أنه لا يسمع إلا صوت هواه، ولا يحب إلا ما يحقق مطالبه ولا يرى إلا ما يُذكِّره بمحبوباته ويقوده إليها!

ولخطورة هذا الأمر عجَّب الله نبيه محمداً ﷺ من هذا الصنف من الضالين، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الحذر من صاحب الهوى:

إن عدم الانتباه لتسويل النفس الأمّارة بالسُّوء وعدم الحذر من وساوس الشيطان؛ قد يسوق الإنسان إلى الهيام في أودية الغَيِّ والتّيه في أدغال الضلال.

وعندما ينسى المرء الله ينساه ويُغفل قلبه عن ذكْره، فيسير وراء (بوصلة هواه) ويصير أمْرُه فُرُطاً.

وهذا الصنف ليس خطيراً على ذاته وعلى عامة الناس فقط، بل خطير حتى على أصحاب الدعوات، ولهذا حذّر الله نبيه منه فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

اعتصام:

من اتخذ القرآن إماماً استقام به على جادة الصراط، وعصَمَه من الانزلاق في سُبل الهوى، وكرّم وجهه من الهوان أمام أي وثن من أوثان عصرنا الظاهرة منها والخفية.

***

قواربُ الإرادة

فعلُ الإرادة:

إن امتلاك الإرادة لفعل الشيء والعزم الجازم على القيام به إنجازٌ بحدّ ذاته، وكأن الشخص قد خاض في الفعل نفسه !

نستنبط ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ ﴾، فإن المرء يقرأ الاستعاذة قبل القراءة وليس فيها، ولم يقل: «إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ» مما يؤكد أن امتلاك الإرادة إمساكٌ بزمام الفعل وكأنه قد تحقق بالفعل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟...﴾، فإن المرء يتوضأ قبل الصلاة وليس فيها، والمراد: إذا أردتم الصلاة فتوضؤوا، وبالإرادة الخالصة دخل الوضوء في الصلاة، من ناحية الأجر بالطبع !

المُداومة على الإيمان:

طالب الله المؤمنين بالمداومة على الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟...﴾، ذلك أن طبيعة الإنسان وطبيعة الحياة وطبيعة المعركة مع الشيطان، تتضافر كلها لتجعل من الإنسان متذبذباً، حيث يمكن أن يرتفع إلى ذروة الحساسية والإيجابية ويمكن أن يتدحرج إلى قاع التبلد والسلبية.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾﴾، فكيف يناديهم بالمؤمنين ثم يطالبهم بأن لا يموتوا إلا مسلمين؟ بالتأكيد أنه يحذرهم من إمكانية السقوط ويدعوهم إلى تقوية أركان الإرادة، وتوثيق عرى الإخلاص، وكما قيل: «إنما يتعثر من لم يخلص» .

تطهيرٌ وتدنيس:

من أسوأ الانفصامات وأشدها غرابة أن تجد أشخاصاً يُدنِّسون أرواحهم وضمائرهم أثناء انسلاكهم في الطريق لتطهير أجسامهم وثيابهم، حيث يأخذون المال الحرام مثلاً من أجل الحج أو العمرة، متجاهلين مدى الأقذار التي يَصبّها على أرواحهم هذا المال الدّنس !

ولهذا فإن الله تعالى عندما نادى عبده المتدثر، آمِراً إياه بتطهير الجسم والثياب، سبق ذلك بتكبير الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، وإذا كبّر الإنسان ربه بحق فلن يجعل تطهير الأجسام سبباً لتدنيس الأرواح؛ إذ أن الله سيملأ القلب بعظمته، ولن يصبح المال غاية تستحل في سبيلها كل الوسائل وتستباح سائر الحرمات!

الشخصيات الانفصامية:

عند تخاصم الناس تظهر طبائعهم المطمورة في أعماق ما يسمى بـ(العقل الباطن)، وتنبعث خِلالُهم المخفية، وتَبرز التناقضات الثاوية في شخصياتهم، وإلى هذا يشير المولى عزَّ وجل بقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ ....﴾،وكان السياق يتطلب القول:«هذان خصمان اختصما»، لكنه استخدم فعل الجمع (اختصموا) إشارة إلى التناقضات الحاصلة، وكأن الاثنين أصبحا بسبب التخاصم مجموعة من الناس !

الخير بين الفعل والدعوة:

إن فعل الخير مقصد أساسي من مقاصد هذا الدين العظيم، ولذلك دعا الله جميع المؤمنين لفعله، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، أما الدعوة

إليه بطريقة منهجية منظمة، فهذه مهمة جماعة من المسلمين تتأهل للقيام بهذا الفرض الكفائي كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، وهذا من باب احترام التخصصات، حتى تنبعث الفاعلية ويتحقق التكامل.

ومن أهم مؤهلات التفرغ للدعوة إلى الخير امتلاك الإرادة القوية والعزيمة الصلبة.

***

طرائقُ التكامل

صناعةُ الوعْي الجمعي:

يحرص القرآن على إرساء الوعي الجمعي في أذهان المؤمنين في كل وقت، حتى يصير المؤمن بؤرة الجماعة المؤمنة ولا تغيب عن وعيه في أي ظرف.

وعلى سبيل المثال فإن الصلوات تكون جماعية وقد يصلي المسلم منفرداً، لكنه في كل الحالات لا بد أن يقرأ الفاتحة التي يدعو الله في كل ركعة قائلاً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بصيغة الجمع، ومع أن المقام مقام ذل وطلب واستجداء إلا أن استخدام ضمير الجماعة يشير إلى أن الخلاص الفردي لا بد أن يكون مرتبطاً بالخلاص الجماعي، ويؤكد أن الهداية الفردية ستظل منقوصة بدون الهداية الجَمْعية !

التكميلُ لا التكتيك:

هناك فرق بين المنهجين التشاركي والانسحابي، فالذين يعتذرون عن تحمل المسؤولية يتعذرون بنقص في ملَكاتهم ومواهبهم؛ مُؤْثرين الانسحاب وممارسة السلبية، بينما يُدرك أصحاب المنهج التشاركي أن ملَكاتهم وحدهم لا تكفي لتحمل المسؤولية والقيام بأعباء الرسالة أو الوظيفة، وهذا عين ما فعله موسى عليه السلام، فلم يتعذر بعدم فصاحته ووقوعه في القتل الخطأ من أجل الانسحاب، وإنما طلب تكميل النقص بالأخ، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤]، وهكذا فإن الإيجابيين يطلبون تكميل ما ينقصهم، بينما يستخدم السلبيون النقص كتكتيك لتبرير الانسحاب.

ائتلاف الصادقين:

لا يكفي أن تكون صادقاً كفرد، بل ينبغي أن تمتلك الاستعداد للائتلاف مع الصادقين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وهناك فرق بين الفرد والشخص، فالمؤمن شخص لا فرد لأنه يتميز بمواهبه وقدراته المختلفة عن غيره لكن الاختلاف لا يدفعه إلى زاوية الخلاف والتنحي بعيدا عن الآخرين؛ حيث يمتلك مقومات الائتلاف مع غيره في مشاعره القلبية وسلوكياته الاجتماعية، ومن هنا جاء قوله ﷺ: «لا خير في من لا يألف ولا يُؤلف».

فلَكُ الشريعة:

تَسبح سائر المخلوقات في فلك الملكوت الكوني، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وهي تَسْبح مُجبَرةً، بينما طلب من بني الإنسان أن يَسْبحوا في فلك الشريعة اختياراً؛ حتى تتكامل طاقاتهم ولا تتآكل، وتتضافر جهودهم ولا تتنافر.

الكتاب الجَمْعي:

يبدو أن الحساب يوم القيامة لن يكون فردياً فقط، بل سيكون جماعياً في الواجبات العامة والفرائض الكفائية، وهذا يستدعي الارتقاء بالوعي الجمعي وتفعيل فريضة الشورى.

ومثلما يستلم الفرد كتابه بيمينه أو بشماله، فإن الأمة ستستلم كتاب أعمالها بأيمانها أو بشمائلها، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

وتزداد مسؤولية أمة المسلمين في هذا السياق بحكم أنها أمة الشهود الحضاري وخير أمة أخرجت للناس.

استعلاءٌ وتواضع:

في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن المؤمن يعيش في صياصي العزة وعوالي الإباء، حيث يرتفع بجناحي العلم والإخلاص، ويرتقي بالإيمان والأخلاق وبالأعمال الصالحة، لكنه يخفض جناح العزة هذا للمؤمنين أمثاله، ذلك أن من طبيعتهم الذلة على بعضهم والعزة على غيرهم.

***

مفاتنُ الأسباب

تأليهُ الأسباب:

إن عُبَّاد الأسباب هم الذين يرون أنها تمتلك بذاتها جلْب النفع وتقتدر على دفع الضُّر؛ ذلك أن هذا الأمر من اختصاص الإله الواحد، ولأمثال هؤلاء قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ...﴾ [النحل: ٥١-٥٢].

لقد أكد الله أنه وحده من يملك مقاليد السماوات والأرض، ولذلك ينبغي أن يكون له الدين واصباً، أي جميعاً سواء في طلب النفع أو دفع الضر، في الرخاء أو الخوف: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، أي لا ترهبون غيري بأي حال من الأحوال، وختم الآية الثانية بسؤال استنكاري: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ؟!

ومن المؤكد أنها معضلة أخرى من معضلات تعظيم الأسباب التي ما تزال تتعاظم في أذهان ضعفاء الإيمان حتى تصبح (أنداداً لله) !

الفرَحُ المُطْغي:

جاء الإسلام لإسعاد الإنسان، ومن سعادته أن يعيش فرحاً مسروراً في غمار هذه الحياة، لكنه الفرح بنعم الله لا بالأشياء، والتلذّذ بآلاء المُنعم لا بالشهوات، الفرح الذي لا يُنسي المرء خالقه ولا يُطغيه على خلْقه.

وبهذا فإن الفرق كبير جداً بين الفرح القاروني المذموم إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وبين الفرح بمِنَن الله الكريم والاندفاع لشكره، فإن من يفرح بما حصل عليه يعني أنه يتكل على الأسباب، مما ينسيه الخالق ويطغيه على الخلق، ولهذا توعّد الله من يفعلون ذلك بالعذاب الأليم، فقال

تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

الافتتانُ بالعلم:

من أهم معضلات الوقوف عند الأسباب الافتتان بالعلم، مما يجعل الإنسان يُؤلِّه نفسه كما فعل قارون عندما قال له قومه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ فردّ عليهم وقد أصابه جنون العظمة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، إن نسيان المنعم يصيب الإنسان بلوثة الغرور حيث تحل فيه الروح القارونية، وعن هذه الحالة قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٩، ٥٠].

فتنةُ الأسباب:

لم ينسَ يوسف عليه السلام ذكر الله وقت الإغراء بعد تغليق الأبواب وإطلاق المُراودة، لكنه نساه ببشريته عند التسبُّب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وذلك على رأي من قال بأن المقصود بالناسي هنا يوسف، وهذا يوضح مدى خطورة الأسباب، وأنها من أكبر الفتن التي تتعرض للمؤمن في حياته، مما يستوجب عليه أن يكون كامل الانتباه، وأن يظل شديد الحذر.

التحطُّم بين الأفراح والأتراح:

إن عدم الاتصال الكامل بمالك الأسباب والوقوف عند الأسباب فقط؛ يؤدي بالإنسان إلى تحطم قلبه ومشاعره بين الفرح بالنعمة والرحمة لذاتها وبين

القنوط من السيئة والمصيبة، حيث تتضخم الأفراح إلى حد إعماء البصر عن رؤية المنعم، وتتكاثف الأحزان إلى حد كفّ البصيرة عن إدراك حِكم الله وأسراره في الخلق، وصولاً إلى الغرق في مستنقع اليأس والإحباط.

وعن هذا الصنف من الناس قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ٣٦،٣٧].

سببُ الحياة:

الماء هو السبب الأساسي لحياة الكائنات في هذه الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ...﴾، وحتى لا يلتبس الأمر على أصحاب العقول الضعيفة فإن الله كلما ذكر الماء يذكر صراحة أنه تعالى هو من جعله سبباً للحياة، كما في الآية الأنفة الذكر: ﴿وَجَعَلْنَا...﴾، فهو من أودع في الماء خصيصة الإحياء للحيوانات والنباتات.

وفي معرض الامتنان بالنِّعم الربانية يوالي الله التذكير بهذه الحقيقة، فيقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، فهو تعالى من أنزل الماء من السماء، وهو من أخرج بواسطته تلك الثمرات التي يرتزق منها الإنسان ويقتات، وبذلك فقد جمع النص القرآني بين السبب والمسبب، حتى لا يلتبس الأمر على أحد من الخلق!

***

أنْدادُ الأسباب

تَرْبيبُ الأنبياء:

جعل الله تعالى المرسلين أسباباً لهداية الناس ولإسعادهم في الدارين، ولكن قصر النظر عند بعض البشر جعلهم يرون الأسباب ولا يرون من سبَّبهم، ومن أرسلهم مبشرين ومنذرين، وكان أن عظّموا هذه الأسباب حتى جعلوها أرباباً مع الله تعالى، كعيسى بن مريم الذي قال الله عنه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟!

أصنامُ الأسباب:

إن من يجعلون الأسباب غايةً في حد ذاتها إنما يجعلونها أصناماً يعبدونها من دون الله أو يشركونها معه، وبذلك فإنهم يُبدِّلون نعمة الله كفراً ويتسبّبون في إضلال قومهم وإحلالهم دار البوار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠ - ٢٨].

لقد جعلوا من الأسباب أنداداً له، ولهذا فإن الله يمهلهم ليتمتعوا بما افتتنوا به في الدنيا لكن النار مصيرهم وبئس العذاب!

وكم من الأئمة والأولياء الذين أدخلهم بعضُ المسلمين في هذه القائمة المشؤومة!

البراءةُ من الأسباب:

يُعدّ المؤمنون أمثلةٌ راقية في التسبُّب واعتناق السُّنَن، ونماذجُ رائعة في التسلُّح بالوسائل النافعة لتحقيق المقاصد المشروعة والأهداف المنشودة.

ويقف رسل الله وأولياؤه الصالحون في مقدمة هذا الرّكب المتوسل بالأسباب، لكنه توسّلٌ مبصر لا يسمح أبداً بأن تتحول الوسائل إلى غايات، ولا يتيح بتاتاً للوسائط أن تخرج من الأيدي وتتسلل إلى القلوب.

وربما كانت هذه المعاني مقصودة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فإن البصيرة تحتاج إلى سببية لكن المؤمن يوقن أنها لا تمتلك فاعلية ذاتية، لأن الاعتقاد بفاعليتها الذاتية يُمكّنها من الولوج إلى القلب، ومن ثم تصبح نداً لله وتوقع أصحابها في الشرك، ولذلك أضاف الله الهداية والضلال إلى الناس ونفى أن يكون الرسول وكيلا لأحد أو على أحد.

شِرْكُ الأسباب:

للشرك أنواع عديدة، ويبدو أن أوسع أنواع الشرك انتشاراً هو شرك الأسباب، حيث ينخرط فيه مسلمون كثيرون بجانب الكفار، لأنهم يجهلون حقائق العقيدة ولا يعرفون الله حق المعرفة، إذ يتعامل هؤلاء مع الوسائط والأسباب كأنها تعطي وتمنع أو تضر وتنفع، وربما كان هذا الشرك هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

إن الأسباب ليست نداً لله ولا ضداً لإرادته، وإنما هي من جنوده التي سخّرها لتنزل المنافع من عنده ولدفع المضرات القدرية عن خلقه، بحسب أخذهم بها واستثمارهم لها.

مشركو الزكاة:

إن الذين يسمحون للأسباب بالولوج إلى قلوبهم إنما يجعلونها غاية، وإذا استحالت إلى غاية استُحلَّت كل الوسائل الموصلة إليها، وحاد المرء عن الطريق

القويم في التعامل معها، وأبلغ مثال في هذا الأمر هو المال، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، فالمشركون هنا لا يُقصد بهم الذين يعبدون الأصنام؛ لأنهم ليسوا مطالبين بالزكاة إذ أن الزكاة من أركان الإسلام، وإنما هم صنف من المسلمين الذين جعلوا المال غاية فمنعوا الزكاة، ليصبح هذا المال نداً لله يقود أصحابه إلى دائرة الشرك!

***

ذَخائرُ الاختيار

القُنوتان القَسْري والطَّوعي:

يقف الإنسان في مقدمة الكائنات القانتة لله بفطرتها كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾، أي أنهم خاضعون بجِبلّتهم أذلّاء بطبيعتهم السليقية.

فلم لا تكون أيها المسلم مع القانتين بإرادتك وسعيك، حتى تكون ضمن صفوف القانتين الذين يَسجدون لله ويقومون بين يديه يَحْذرون الآخرة ويَرجون رحمة ربهم ؟

لماذا لا تكون كالعذراء مريم التي وصفها الله بأنها ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ ؟!

سُجُودا الخَلْق والأمْر:

الإنسان من أضعف الكائنات التي خلقها الله، فقد وضع الله فيه استعدادات الضعف ومشاعر الحاجة؛ حتى يلجأ إلى ربه ولا يُعرض عنه، وهو في أوقات ضعفه مثل سائر الخلائق لا يلجأ إلا إلى الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾، وهذا هو السجود الخَلْقي، فلماذا لا تسجد السجود الأمْري: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾، السجود الذي تختار معراجه بإرادتك ليرتقي بك في آفاق القُرْب وسماوات العُلى ؟!

مَتانةُ العزيمة:

إن قوة الإرادة وصلابة العزيمة من أهم أسس النجاح في أي مشروع، ولقد خسر أبونا آدم الحياة الفردوسية الأولى بسبب ضعف العزيمة وضعف الذاكرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾.

ومن يريدون فَرْدسةَ الدنيا لا بد أن يتصفوا بهذا الشرط، بحيث تُردِّد ألْسنة حالهم مع كليم الله موسى: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

إنها العزيمة القوية التي تعين على تحمل الأثقال وتدفع إلى تجاوز الصعاب، وتُمكِّن صاحبها من مواجهة التحديات والانتصار على الخطوب !

انفصامُ الجوانح والجوارح:

لنكن حذرين من أن تصبح أبداننا حميراً لعقولنا، لأنها حينئذ لن تستفيد مما فيها من أسفار المعرفة وآيات الحكمة، ولقد أدى انفصال الجوارح عن الجوانح باليهود إلى أن شبههم الله بالحمير التي لا تعلم شيئاً، مع أنهم أهل كتاب: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

صِرُّ الرِّياء:

لننتبه على حرْث أعمالنا الصالحة من صِرِّ النفاق الجَليّ ومن برد الرياء الخَفي، حيث يمكن أن يُهلكه كالنار وكأنه لم يكن، كما قال تعالى عن المُرآئين: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وهذا هو أقبح الظلم لأنه يُفسد أعمالاً كالجبال ويُهدر ما اجتمع فيها من جهد ووقت ومال، وبذلك تَتمّ خسارة الدنيا والآخرة.

***

غَمَراتُ الجَهالة!

أحقادُ الجهل:

يُخفِّف العلم من مشاعر الكراهية ويزيل الضغائن من القلوب ويُجفِّف منابع الظلم إلى حدٍ كبير، ذلك أن في طبيعة البشر ميلاً للتكذيب بما لم يَعلموه وللسخرية مما لا يعرفوه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا فقد صار الجهل جسراً للعبور نحو عَرَصات الظلم، ومن ثمّ استجلاب العذاب الذي يحيق بالظالمين!

الإنسان عدوٌّ ما يجهل:

من طبائع الإنسان الترابي التكذيب بما لا يعلمه ومعاداة ما يجهله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

ولهذا أوجب الإسلام على الناس تفتيح حواسهم وتثوير عقولهم؛ حتى لا يجهلوا آيات الله فيقعوا في خطيئة التكذيب بحسن نية؛ ذلك أن النية الحسنة لا تعفي المرء من تحمل تبعات أخطائه، وكما قيل فإن الطريق إلى النار قد تكون مفروشة بالنيات الطيبة!

الغَرَقُ في الجهالة:

إن بحار الجهالة ذات أمواج متلاطمة، ويمكن أن تُغرق أصحابها كما يحدث في لُجَج البحار لمن لا يعرفون السباحة.

هذا المعنى الجميل أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، فالغَمْرة هي الماء الذي يغمر القامة، وهو هنا الجهل الذي يغمرهم من أخمص

أقدامهم إلى قمم رؤوسهم، ويُصيِّرهم من الذين لا يَسمعون ولا يرون ولا يتنفسون، كأنهم صاروا في عداد الموتى !

الطَّبْعُ على القلوب:

ضرب الله في القرآن من كل مثل، لكن الذين كفروا بسبب جَهلهم كذّبوا بآيات الله وبنبوة محمد ﷺ واتهموه وأصحابه بأنهم مُبطلون كما في الآية ٥٨ من سورة الروم، وعقّب الله على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

وهي آية مرعبة بالنسبة لخطورة آفات الجهل وعاهات الأمية الفكرية، وما يستجلب ذلك من الكفر والتكذيب وما يستوجب من الذل والعذاب.

إن الجهل يطمس البصيرة ويطبع على القلب حتى لا يصلح لاستزراع الخير واستيطان الحق!

وُحدانية العلماء:

تنشأ كثير من صور الشرك في أذهان الناس بسبب جهلهم، ولذلك فإن العلماء من البشر هم من يشهدون لله بالوحدانية بجانب شهادته تعالى لنفسه وشهادة ملائكته له، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

عدَامةُ الجاهلين:

الإسلام هو الدين القيِّم ذو الفعالية الذاتية، ولكن مشكلة أكثر الناس هي الجهل بمكارمه ومزاياه: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ونلاحظ الأدب الرباني في التعبير عن الجهل بعدم العلم !

مباهجُ المناهج

الافتراضُ العلمي:

يقرر القرآن الكريم أن *الافتراض* خطوة مهمة في سياق المنهج العلمي الباحث عن الحقيقة، قال تعالى لنبيه الذي كان يخوض حوارات ساخنة مع أهل الكتاب مثل غيرهم من المشركين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

كأنه يقول: إن ادعاءكم بأن المسيح ابن الله افتراض يقبل العقل من حيث المبدأ أن يكون صحيحا أو باطلا، فإذا أثبتموه بالبراهين العلمية والحُجَج الدامغة فسأكون أول العابدين!

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وكأنه يقول: فلنبحث عن من هو المهتدي لنتبعه جميعاً.

القلَق المعرفي:

القلق المعرفي جهاز لارتياد المجاهل واكتشاف الغوامض، وهو مجهر لرؤية الدقائق وأداة لتطوير الصنائع.

ولهذا فقد تجسَّد هذا القلق المعرفي في القصص القرآني بشكل واضح، وموسى عليه السلام هو نموذج قوي في هذا المضمار، فقد ذهب للبحث عن الحقيقة رغم أنه كليم الله، وذلك في قصته مع الخضر عليهما السلام وطرحه لتلك الأسئلة الثلاثة، الأسئلة التي تتغيأ ارتياد ما وراء المادة وإشباع النَّهَم المعرفي لصاحبها.

وأشار إلى ذلك القلق الخضر بقوله له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟!

أسئلةُ المعرفة:

لقد ظلت المعرفة هي ذلك الهدف المنشود بل والمقدس عند أنبياء الله وملائكته وأوليائه الصالحين، حتى وجدنا الملائكة تسأل الله عن حكمة تفضيل آدم، وسأل إبراهيم عليه السلام ربَّه بأن يُريه إياه، واتجه موسى إلى الخضر بأسئلته الثلاثة، وسأل عزيرٌ اللهَ عن كيفية إحيائه للخرائب القديمة والأطلال الدارسة وما تضم أجداثها من جثث هامدة وعظام رميمة!

الأمانة العلمية:

من أهم مقومات البحث العلمي الأمانة (العلمية)، حيث لا يسرق الباحث جهود غيره ولا يبخس العلماء أشياءهم، ولا يُحوِّر الكلام أو يُحوِّله عن مراميه بسوء قصد، ولا يُحرِّف الكلم عن مواضعه أو يُزيِّف الحقائق المنطقية ليخدم مآربه الذاتية.

ومما قاله الله تعالى في هذا الشأن: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة:١٨١].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وكلام العلماء هو أمانة ينبغي أن تُنسب إليهم ولا تُسرق أو تُجحد، وفي المقابل لا يصح تقويلهم ما لم يقولوا، ولذلك فإن القاعدة الفقهية تقول: «لا يُنسب لساكت قول»، ومن المعلوم أن القواعد الفقهية مأخوذة من استقراء الآيات القرآنية.

دعوة للاجتهاد:

في قوله تعالى عن المتشابه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، ليست دعوة لعدم إعمال العقل في النصوص الظنية، فهي تشمل أكثر آيات القرآن ولا بد أن

تتدبرها العقول كالآيات المُحكَمة، بل هي دعوة لعدم الجزم بأن مراد الله فيها هو ما توصل إليه العالم الفلاني مهما كان رسوخه في العلم، ودعوة لتحريم الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة من قبل أي أحد مهما بلغ من العلم والتقوى، ومن ثم يظل باب الاجتهاد مفتوحاً للبحث عن مقاربات تجيب عن أسئلة العصر وتلبي حاجات الناس وتستوعب المصالح المتغيرة، دون حَجْر على أحد، إذ لا يعلم مراد الله على وجه اليقين إلا الله.

***

خلائقُ المشركين

الإثمُ العظيم:

خارطة الآثام كبيرة وتضم أعدادا غير قليلة منها، غير أن بينها فروقا كثيرة، لكن أعظمها خطراً وأشدها نكراً هو الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، ونلاحظ كيف وضع كلمة الإثم بين الافتراء والتعظيم ليدل على فداحة الخطب وضخامة الجُرم، ذلك أن في الشرك تسوية ظالمة بين الخالق والمخلوق، وبموجبه يعطى للمخلوق ما لا يستحق، ويُنسب إلى الخالق ما لا يليق، ويتم تقسيم العبادات قسمة ضيزى، وتتحطم فاعلية الإنسان بين الشركاء المتشاكسين!

تَسفُّل المشركين:

لا شكّ أن التوحيد عروجٌ نحو قمَم المعالي ومقامات الرِّفعة، بينما الشرك سقوطٌ في مهاوي التفاهة وانحطاطٌ في غياهب الوضاعة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠]، فالمشرك يهوي من سماء العقلانية إلى أخاديد الخرافات، وينحطّ من آفاق الأخلاق الرفيعة إلى أعماق الخلائق الوضيعة، ويسقط من أعالي الذُّرى الروحية إلى أسافل المادية الترابية.

أندادُ الآخرة:

من تعوّد على إعطاء الفاعلية للأسباب فإنه لا يَكُفّ عن ذلك حتى آخر رمق في حياته، بل وربما بعد مماته في الآخرة.

قال تعالى على لسان الكافر الظالم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، فإنه ما يزال في هذه اللحظة موزَّعاً بين ربَّ الأرباب المذكور في مصطلح: ﴿رَبِّ﴾ وبين الأنداد

المشار إليها بصيغة الجمع في كلمة: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾، وهم هنا ملائكة العذاب الذين يُنزلون به العقاب، حيث يظن أنهم قادرون على إرجاعه إلى الدنيا !

وبالطبع هناك من المفسرين من يرى أن هذا الكافر خاطب الله هنا بصيغة الجمع تعظيماً لشأنه، وهو أمر محتمل.

التّهكُّم القرآني:

يستخدم القرآن في بعض المواضع كلمات حسنة في التعبير عن مآلات سيئة، وذلك في صورة من صوَر التهكُّم المستحق بمن كذب بآيات الله وتعاظم على خلْقة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، والنُّزُل هو البيت الذي تتوفر فيه أسباب الراحة، لكنه هنا يتحدث عن نُزل المكذبين في لُجّات الجَحيم، وهذا النُّزُل الذي يُستضاف به هؤلاء هو شيء من الحميم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢ - ٩٤]، وفي هذا التهكم عذاب نفسي بجانب العذاب الحسي.

ومع شدة هذا العذاب وعظم الإهانة، فإنه تعالى في الدنيا قد قال لنبيه محمدﷺ: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ !

وإذا كان النُّزُل هو السّكَن المريح كالفندق في زماننا، فإن البشارة لا تكون إلا بالخير، لكنه التهكم من المكذبين والسخرية ممن كانوا يسخرون من آيات الله ويستهزئون بعباده المؤمنين!

تبادُلُ الوظائف:

كان الكفار في دنياهم ذوي أبصار حديدة وبصائر كليلة، أما في الآخرة فيَحدُث لهم انقلاب كامل، حيث تتفتّح بصائرهم ليدركوا مدى ما اقترفوه

في حق الله من جُرم، بدلالة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ذلك أن الغفلة تصيب البصائر لا الأبصار.

بينما تُطمس أبصارهم فلا يرون شيئاً في بعض محطات الآخرة، أو أنهم لا يرون إلا ما يسوؤهم، وربما كان هذا المعنى مقصوداً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

***

مقاليدُ الكمال

عدلُ الله:

من عدل الله المطلق أنه يوزع نعمَه على جميع خلقه، فلا يوجد من أعطاه الله كل شيء ولا من حرمه كل شيء، مع وجود اختلافات نسبية بالطبع تقتضيها الطبيعة المتنوعة للابتلاء والتضاريس المختلفة للحياة.

وينطبق ذلك على الشعوب والأمم، فلا توجد أمة امتلكت كل المواهب والقدرات وحازت جميع النعم والآلاء أو حُرمت منها كلها.

وعلى سبيل المثال لما كانت الجغرافيا العربية مليئة بالصحاري والقفار المجدبة والنادرة الأمطار، فقد عوض الله شعوب هذه المنطقة بخصوبة مختلفة وأمطار أخرى، عندما ساق سحائب الرسالة الخاتمة فوق أرضهم فهطلت هداياتها العميمة وانسكبت بيناتُها العظيمة عليهم، فاهتزّت القلوب ورَبَتْ العقول، ثم أنبتت من كل خير وأثمرت من كل نفع، وسرعان ما تكونت بحيرات عظيمة انداحت منها أنهار دعوة انطلقت منها لتروي العقول والقلوب في مساحات عريضة من أقطار الدنيا وصبت إليها فتوحات الدعوة الإسلامية.

وعوّضه الله العرب أيضاً بتشريفه لهم من خلال جعله لخير البرية محمد ﷺ منهم، ومن خلال إنزاله للقرآن بلغتهم، مما حفظها من الاندثار أو الانقسام بين اللهجات المختلفة، وأعطاها مكانة سامية بين اللغات، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾. والذكر هنا هو الشرف والسؤدد والمكانة المتميزة.

وحدةُ الذات الإلهية:

مع أن لله تعالى عشرات الأسماء الحُسنى والصفات العُلى، إلا أن ذات الله واحدة لا تتعدد، وهذا الأمر لا يغيب عن ذهن المؤمن الحق بتاتاً، فمهما شعر بالأمان فإنه لا ينسى أن الله جبّار منتقم وأنه قوي شديد العقاب، ومهما كان خائفاً من ذنوبه وخطاياه فإن وعيه لا يغيب عن إدراك أن الله رحمن رحيم.

ولهذا ورد اسم الرحمن في مقام العذاب والخوف، في بضع مواضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، الذي جاء في معرض الحديث عن صفات المتقين الذين أُزلفت لهم الجنة، فقد كانوا في شدة ارتياعهم من الله لا ينسون أنه الرحمن الرحيم.

ذلك أن من تعاملوا مع صفات الله بطريقة منفصلة؛ وصَلوا إما إلى دوّامات اليأس من رحمة الله أو سقطوا في لُجَج الأمن من مكر الله !

عدلٌ وفضل:

كانت مكة المكرمة مجرد وادٍ غير ذي زرع عندما ترك إبراهيم زوجته وابنه إسماعيل فيها، ثم صارت قرية صغيرة عندما وضعا فيها أسس أول بيت وضع للناس، لتصير قبلة الموحدين الأحناف ومهبط القرآن الكريم وموئل الرسالة الخاتمة، ومهوى أفئدة المسلمين إلى قيام الساعة.

لقد أكرمها الله ببيته الحرام، ومنذ أن وطئت قدما (هاجر) بطحاءها، وتحمّلت حرَّها الشديد ببَرْد إيمانها بالله، توافدت عليها قوافل (المهاجرين) إليها من شتى أصقاع المعمورة، من الحُجّاج والتّجار، ومن العُمّار والعُمّال، وتنافست ثمار الأرض في الوصول إليها، بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام المستجابة من صاحب العدل والفضل.

كمالُ كلماتِ الله:

الله سبحانه وتعالى وحده هو صاحب الكمال المطلق في كل شيء وفي كل آن، بعكس سائر الكائنات التي يعتورها القصور ويغشاها النقصان، ولا تزال النسبية تدمغها بالمراوحة بين الملائكية والحيوانية.

ومن ذلك كمال الكلمات، فإن كلمات البشر هي انعكاس لنقصهم وقصورهم، وترددهم بين سائر الثنائيات المتناقضة، بينما كلمات الله هي انعكاس لكماله وجماله.

قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾، فهو ذو الصدق الخالص والعدل الكامل سبحانه وتعالى.

***

مباهجُ الغرائز

نعمةُ الإبهاج:

خلق الله في الإنسان نوازع الاستمتاع الحسّي والابتهاج النّفسي، حيث يجد لها لذة عجيبة، ولهذا فقد أمر بإشباعها وفق الضوابط المشروعة، وذلك بالأكل والشرب والجنس واللبس والتزين والسكن والتداوي واللهو واللعب.

وقد امْتنَّ الله على الناس بإنزال ماء السماء على الأرض وإنبات أسباب الابتهاج، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، وكلمة بهيج على وزن فعيل، لكنها بمعنى مُبهج كأنها مبتهجة في حدّ ذاتها، وهو أسلوب أبلغ في إظهار أثرها الكبير في إسعاد الإنسان، فقد ابتهجت وهي بدون روح فكيف بمن منحهم الله القلوب والأرواح؟!

وقد اقترن الإبهاج النباتي في هذه الآية بمَدّ الأرض مع كونها كروية، وبإلقاء الجبال التي تُرسي حركة الأرض وتمنع التربة من الانزياح، وهو دليل على أهمية الابتهاج في حياة الإنسان، ولا سيما أن في السياق امتناناً بهذه النعم الثلاث التي ستختل الحياة بدونها!

صراطُ الفَرْدسَة:

كما أن الصراط المستقيم في الآخرة هو طريق العبور إلى الجنة، فإن صراط الشريعة بمفهومها الحضاري العريض هي الطريق إلى استعمار الأرض وفردسة

الحياة*؛ لأنها تمتلك مياه الهداية، وأوكسجين الحرية، وأسمدة العدالة، وسياج الوحدة، وهي أهم قيم النهوض الحضاري. ويزخر القرآن بعشرات الآيات التي تتحدث عن هذه القيم المسؤولة عن فردسة الأرض وتحقيق العروج الحضاري الذي ينشده كل البشر.

حُبُّ المال:

من طبائع التراب في الإنسان اندفاعه في حب المال وكأنه غاية في حدّ ذاتها، وقد لفت القرآن النظر إلى هذه الطبيعة عندما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ... وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، فقد أجمع المفسرون على أن الخير المقصود في الآية هو المال لكن أحداً لم ينتبه إلى أن القرآن سمّاه هنا بالخير توصيفاً لطبائع الناس والتي لا يهذبها إلا الإيمان، حيث يجعل من المال وسيلة لفعل الخير وليس خيراً بحد ذاته !

وبذلك يصير الحب المشروع للمال وسيلة لفردسة الدنيا وتعمير الأرض، ومن ثم لإسعاد القلوب وإبهاج الأرواح.

العناية بالشهوات:

كما طلب منا المنهج القرآني أن نعتني بعقولنا وأن نتزود لأرواحنا، فإنه يطالبنا بالاعتناء بأجسامنا وما فيها من جوارح وحواس، وما تتطلبه من رغائب وشهوات.

ومن الآيات التي تشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ..﴾، وهي إشارة إلى التحلل من الإحرام والتوقف عن منهيات الحج، حيث يتم بالتحلّل نَتْف الأشعار وقصّ الأظفار، وكذا معاقرة التطيب وممارسة الرَّفَث مع الزوجات !

ولنلاحظ كلمة ﴿لِيَقْضُوا﴾، فكلمة قضاء تشير إلى الوجوب الذي توقف مؤقتاً، بمعنى الاستئناف والإعادة !

بكاءُ الدنيا:

لأن الغاية من خلق الإنسان هي العمارة العبادية للأرض، فإن السماوات والأرض تبكي على من ماتوا وكانوا عمّاراً للأرض حسب هدايات السماء، ومن خدموا الخلْق وفق ما يرضي الخالق، وهذا ما لا يفعله الكافرون مهما كان صلاحهم، ولهذا قال تعالى عن قوم منهم أخذهم الهلاك: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وبالنسبة للمؤمنين فإن من تبكي عليهم الحياة هم من يصنعونها، وكم تعجبني في هذا السياق مقولة الإمام ابن القيم: «من لم تَبْكِ الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه» !

***

أفْنانُ التفاصيل

لا استهانة بالتفاصيل:

لا يستهينَنّ أحَدٌ بالتفاصيل الدقيقة، فإنها كثيراً ما تعطي الأشياء الكبيرة جزءً مقدرا من قيمتها ووظيفتها وجمالها، وفي القرآن الكريم ومضات عديدة تؤكد هذا الأمر.

وعلى سبيل المثال، إن العملة الورقية أو المعدنية إذا انطمست تفاصيلها الدقيقة فقدت قيمتها، كما يومئ إلى هذا المعنى قولُه تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، فالطمس هنا هو المَحْو والإزالة للتفاصيل الدقيقة في القطعة المعدنية التي ستصبح لا شيء بعدها.

ولو انطمست الشبكة الدقيقة في العين لعميت، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، فالشبكة الدقيقة التي قد لا تُرى بالعين المجردة هي التي تعطي للعين القدرة على الرؤية الدقيقة النافذة.

ولو انطمست تفاصيل الوجه لذهب جمالُه وتعطلت كثير من الوظائف فيه، كالرؤية والشم والسمع؛ ولهذا فقد حذّر الله قوماً فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾، ذلك أن الطمس يجعل الإنسان مسخاً قبيحا ومفتقدا لعديد من الوظائف الطبيعية الضرورية لحياته.

ومن هنا كانت من علامات القيامة انطماس النجوم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، حيث تنعدم وظائف النجوم بصورة كلية وينتهي جمالها الأخّاذ.

الإعراض عن التفاصيل غير المهمة:

يُعلّمنا القرآن أن نُعرض عن الانهماك في التفاصيل التي لا ينبني عليها شيء ذو بال، وهذا موجود في كثير من القصص القرآنية، وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا.. ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤]، حيث لم يذكر النَّص ماذا كان الناس يَسقون، هل هي إبل أم غنم أم بقر؟ ولم يذكر ماذا كانت ابنتا شعيب تذودان وماذا سقى لهما موسى؟!

إذ أن ذكر هذه التفاصيل في هذا المقام لا يُسمن ولا يُغني من جهل، وهكذا فعل في قصة أهل الكهف وفي عديد من القصص، حيث أورد معالم القصة والأبعاد التي تصلح للاعتبار واستخرج الدروس منها، بحكم أن هناك قواسم مشتركة بين البشر، بجانب أن السنن تؤدي نفس الدور في كل زمان ومكان من دون تغيّر أو تبدل!

معيارُ الكِبْر أو التواضع:

مع أن الكفر ملّة واحدة في التصور الإسلامي العام إلا أن المتدبر في نصوص الوحي يجد فروقاً بين ملل الكفر ويلاحظ وجود تباين بينها في أمور كثيرة تفرض ترتيبها من حيث قربها أو بعدها عن الإسلام.

ومن المعلوم في هذا السياق أن اليهود أشد الناس عداوةً للمؤمنين، أما النصارى فهم أقربهم مودة للذين آمنوا، ويبدو أن العامل الأكبر في تحديد مدى القرب أو البعد هو عامل مؤثر في سلوكيات التابعين لكل ديانة، وهو في مثالنا عامل الكِبر وانتفاخ الذات.

فما جعل اليهود أشد عداوةً للذين آمنوا هو اعتلاؤهم لشجرة التكبُّر والتي أيْنَعت ثمار التَّجبُّر، بعد أن اعتقدوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وزعموا أنه ليس عليهم في الأميين من سبيل!

أما النصارى فكما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فإن عدم تكبر المتدينين بصدق من النصارى قد ساعد على اقترابهم من المسلمين.

أصحابُ الأَيْكَة:

إنها مجرد شجرة كسائر شجر الأرض، لكنها تبرز مظهرا من مظاهر النسبية التي تزخر بها عدد من آيات القرآن الكريم، ذلك أن بُسوقها في صحراء خالية من الأمطار وقفار جرداء حتى من النباتات البسيطة، واستمرارها في خدمة الخلْق وسط بيئة تجردت من العطاء وكفرت بالنعم؛ جعلها ذلك كله تتحول من شجرة نكرة إلى شجرة يُخلّد ذكرها القرآن، بل واستحقت أن يضيف الله إليها قوماً سكنوا بجانبها وهم قوم شعيب، فقد سماهم الله ﴿وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ﴾، كما ورد في الآية ١٣ من سورة (ص)، وهي (الشجرة العالية) التي استظل تحتها مجموعة من (أقزام الكفر)!

ولو افترضنا بأن هذه الشجرة ذاتها كانت موجودة في منطقة استوائية كثيرة المطر والأنهار كمنطقة البحيرات العظمى في قلب إفريقيا، هل كان الله سينسب الناس الذين يعيشون معها في ذات المنطقة إليها وسيسميهم (أصحاب الأيكة)؟!

معركة المصطلحات:

حينما تنطلق هجمة ثقافية من أمة ضد أخرى تبدأ صغيرةً مثل كُرة الثلج في أعلى الجبل، وتظل تكبر كلما هبطت أكثر، وفي المعارك الثقافية لا توجد أشياء صغيرة، فإن التفريط بأيّ لَبنة يتسبب في إضعاف المنظومة الثقافية برمّتها، ومن ذلك المصطلحات، حيث نرى في عصرنا أن قذائف المصطلحات الأجنبية تنهال على أمتنا ضمن الحرب الباردة والغزو الناعم، حيث يركز الغزو الثقافي على جبهات العقول، عبر وسائل واساليب عديدة، ومنها تشويه مصطلحات الأمة كالجهاد والالتزام والصحوة وتعبئته بمفاهيم سلبية، في مقابل حشو مصطلحاتهم القبيحة بمعاني جميلة وتزيين عملياتهم الآثمة بمصطلحات ذات مدلولات إيجابية كمصطلحي الاستعمار والتبشير اللذين يطلقان على الغزو والتنصير.

ولأن الناس قد يظنون بأن هذا الأمر هيِّنٌ فقد ذكره الله بشكل صريح، إذ توجَّه بنداء حاسم إلى المؤمنين قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، حيث أمرهم بأن يستخدموا مصطلح (راعِنا) بدلاً من مصطلح (انْظُرنا) الذي كان سائدا في ثقافة اليهود.

***

وَسَائطُ الأسباب

بين السُّنَن الجارية والسُّنَن الخارقة:

نتيجة هروب بعض المسلمين من السُّنن الجارية إلى السُّنن الخارقة؛ فإنهم يُسيئون فهم كثير من الآيات التي تُرتب حصول كثير من النتائج الدنيوية على تحقق التقوى، مثل: الرزق والعلم والنجاح، وكذا النجاة من العوائق والمعضلات، إذ يعتقد جلّ هؤلاء أن التقوى علاقة روحية خالصة مع الله ولا محل لها من الإعراب في العلاقة مع الناس ومع الطبيعة، ومن ثم فإنها كفيلة بإصلاح هذه الأمور بطريقة آلية غيبية تتمثّل طريقة الصوفية القائلة: «اصْلحْ ما بينك وبين الله يُصلِح ما بينك وبين الناس»، هذا مع أن التقوى عنوان لالتزام العبد بالأوامر قاطبة واجتناب النواهي كافة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾، أي من يدفعه خوفه من الله ورغبته بما عنده للأخذ بأسباب الصلاح والرزق والتغلب على مشاكل الحياة، فإن الله لا شك سيحقق له ذلك.

- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، فمن اتّقى الله بتجنّب أسباب التطرف والتنطع فإن الله سيوصله إلى مسارب اليُسْر وأبواب الفتح.

- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾، أي فمن اتقى الله باجتراح العبادات التي تُكفِّر السيئات كالصلاة والصوم والحج، ومن التزم التوبة والاستغفار فإن الله سيكفر عنه سيئاته وهكذا.

البحث عن أنجع الطرائق والوسائل:

وتُشبه الآيات السابقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وبناءً على أن الإسلام دينٌ شامل لكل نواحي الحياة، وعلى أن القرآن إنما يصيغ القيم العامة بينما يتولى العقل تفريعها وتفصيل أجزائها وتنزيلها على الواقع، وفْقَ أنْجَع الوسائل وأنْجح الأساليب التي تستفيد من معطيات العلم وتحقق مطالب الواقع، فإن تقوى الله هنا تتطلّب البحث عن وسائل الفُرقان بين الحق والباطل، وآليات التمييز بين الصواب والخطأ، سواء عبر تدبر نصوص القرآن وتجسيداته العملية في سيرة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، أو عبر إعمال العقل في التجارب البشرية وفي تفاصيل الواقع، وصولاً إلى تحقيق هذه الثمرة للتقوى، وبذلك يصير المؤمن واعياً بالأفكار وبصيراً بالأشخاص، وما يزال يتنقل بين دروب الوعي حتى يصير فقيهاً في الحياة، لدرجة أنه قد يرى بنور الله !

ابتغاءُ وسيلة الدعاء:

لأن الوسائل من الأمور التي أناطها الله بالعقل، فإننا نجد في عبادة الدعاء، وفي ما يخص الصوت، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ١١٠]، والصلاة هنا هي الدعاء، فقد حدّد المنهي عنه وهو الجهر والمخافتة، تاركاً تحديد الوسط المطلوب لطبيعة الشخص والظرف، وبذلك تبقى النسبية حاضرة، ويبقى العقل مشاركاً في تحديد سلوكيات الشخص حتى في هذا المجال العبادي المحض !

الدعاء العَمَلي:

الدعاء العملي أبلغ وأقوى في استجلاب المَدَد الإلهي، ويكون بوسائل عدة، ومنها تقديم المساعدة للخلق بين يدي طلب المساعدة من الخلّاق.

ومن الدروس العميقة في هذا المضمار أن موسى عليه الصلام عندما وصل إلى أرض مَدْين التي لا يعرف فيها أحداً أراد طلب المساعدة من الله، فبدأ ببذل المساعدة لفتاتين لا يعرف كنههما لكنه أدرك أنهما ضعيفتان بل مستضعفتان، كما يوحي بذلك قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]. فقد قدّم المساعدة بين يدي طلب المساعدة، وجعل من تدعيم فتاتين ضعيفتين وسيلةً للتضرع إلى الله بأن يرحم ضعفه!

التوكُّل العمَلي:

إن عبارات التوكل على الله وآيات الاعتماد عليه، والاحتماء به من أعاصير الظلم وعواصف العسف، لا ينبغي أن تقوم مقام الأفعال ولا أن تُغني عن أسباب المدافعة، فعندما أصاب الصحابةَ القَرْحُ يوم أُحُد وانصرفوا مُضرَّجين بدمائهم جاءهم خبر أن المشركين سيكرُّون عليهم بأعداد أكبر، فأعلنوا عن احتمائهم بالله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولقد كان هذا الإعلان إيماناً تُصدقه الأفعال، حيث جمعهم الرسول ﷺ وأعاد تنظيمهم، ثم بايعهم وعبّأهم من جديد لمواجهة المشركين الذين لم يجرؤوا على العودة رغم معنوياتهم العالية بعد النصر واستشهاد عشرات من الصحابة وإصابة النبي ﷺ بعدد من الجروح، بعد سماعهم لاستعدادت الصحابة وكأن شيئا لم يكن.

مدارجُ المَرْحليّة

عجَلةُ التراب:

من الطبائع الترابية في الإنسان العَجَلة والتعجُّل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، وتظهر العجلة في أفكاره وتأملاته وفي أقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وتأمل هذه الجملة جيداً وستجد أن العجلة هي الطينة التي خُلق منها الإنسان!

ضعْفُ المُتعجِّلين:

في كثير من المواقف يظهر المستعجلون لقطف الثمار والمتحمسون لحصد النتائج، يظهرون في نظر كثير من العوام كأنهم أقوى من الصابرين الذين يقبضون على الجمر انتظاراً للأمد الموعود أو الأجل المضروب لاكتمال الأسباب ونضوج الثمار.

والحقيقة غير ذلك تماماً، فإن العجلة ضرب من ضروب الضعف وقد تكون الوجه الآخر له، نستنتج ذلك من وصف القرآن للإنسان بالعجلة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، وقوله عنه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، ووصفه في موضع آخر بالضعف بذات الأسلوب: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، فقد خلق من تراب وهو عنصر يزخر بالكثير من الطباع الرديئة ومنها الضعف والعجلة!

ولا شك بأن الأقوياء أقدر على التخلص من آثار التراب، ومن ثم يصيرون أصحاب جلَد أكبر في القبض على الجُمور وتحمّل الأوجاع، وفي اقتيات الحرمان واحتساء المرارات!

من التحجيم إلى التحريم:

راعى القرآن الكريم الطبائع النفسية والظروف الاجتماعية عند تحريمه للكثير من الكبائر، وتَدرّج في إقناع وتدريب المدعوين على الإقلاع عن تلك الكبائر.

وينتصب الخمر كمثال بارز في هذا السياق، حيث تدرّج القرآن من التحجيم إلى التحريم، إذ بدأ التحجيم بالإشارة الخفية إلى أضرار السُّكْر بقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، ونلاحظ أنه وصف الرزق بالحَسَن وترك السُّكْر بدون وصف، وهذه أول إشارة سلبية نحو الخمر!

وصرَّحَ بعد ذلك بضرر الخمر كما في الآية ٢١٩ من سورة البقرة، ومارس التحجيم من خلال التحريم المؤقت في أوقات ما قبل الصلاة حتى يعي المصلي ما يقول، كما في الآية ٤٣ من سورة النساء.

وبعد أن نجح في التحجيم وخفف من وطأة الإدمان بهذه الخطوات المتدرجة؛ انتقل إلى التحريم القطعي والكُلّي، كما في الآيتين ٩٠ ، ٩١ من سورة المائدة.

النُّضوج الذاتي:

ورد قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، بعد ذكر النخيل والزروع والزيتون والرمان، فلماذا قيَّد الثمر بقوله: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ ؟!

يبدو أن في الأمر إشارة إلى ضرورة انتظار الثمرة حتى تنضج تماما، ويؤكد العلم أن أكل الثمار قبل نضوجها مُضر بصحة الإنسان أو يقلل من قيمتها الغذائية على الأقل.

وربما تشير الآية إلى أمر إضافي وهو ضرورة نضوج الثمرة بطريقة طبيعية ودون استخدام مواد كيماوية مُضرة بها، نفهم ذلك من عبارة: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾، حيث نسب الفعل إلى الثمار نفسها وليس إلى عامل خارجي، كأنه يقول: إذا أثمر من ذات نفسه بصورة طبيعية!

***

أفعالُ الله

الفقرُ البشري:

إن الفقر صفة أصيلة في تركيبة البشر، مثلما أن الغنى المطلق صفة من صفات الله الحسنى، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فإن ضعفكم يحتاج إلى قوته، وذُلّكم يفتقد إلى عزته، وإن مرضكم يستدعي شفاءه وكسْركم يستدعي جبْرَه، وإن فقركم يحتاج إلى غناه وجهلكم يحتاج إلى علمه.

أهوالُ الأيام:

عندما تشتد الأوجاع وتتكاثف غيوم الآلام، يبدو للرائي كأن الأيام هي التي تبطش بالناس، مع أنها أواني فارغة والفاعل من ورائها هو الله، والذي أكد بأن أي تغيير سلبي في أحوال الناس إنما تتحمل مسؤوليته أفعالهم، والعكس صحيح.

ولا ريب بأن أشد هذه الأيام هولاً على الإطلاق بل أهوالاً هو يوم القيامة الذي قال الله عنه: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، كأن ذلك اليوم صار يمتلك قدرة هائلة على جعل الولدان شيباً، نتيجة شدة الأهوال التي تحدث فيه.

بين الأسباب والمُسبِّب:

نتيجة خلط البشر بين الأسباب والمُسبب، فقد سلك القرآن كل مسلك لكي يوضح للناس ضلال خلطهم، ومن ذلك استخدام القياس العقلي الجلي، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، كأنه يقول: إن تسبب عبيدكم في تحصيل ما تمتلكون من رزق لا يجعلهم شركاء في هذا المال، فكيف تخلطون بين الرزاق مالك الأسباب وبين الأسباب ؟!

شُكرُ الناس:

ذكر الله سبحانه وتعالى أن الأوثان التي تُعبد من دونه لا تملك للناس رزقاً، ثم قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فلماذا بعد الأمر بابتغاء الرزق والعبادة قال الله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ ولم يقل: ﴿واشكروه﴾ ؟

يبدو لي أن الله هنا يضع الأسباب في موضعها، حيث ينبغي الأخذ بها عند ابتغاء الرزق، مع الإيقان بأن الرزاق هو الله، ولا يعني ذلك التنكر للأسباب وغمط من ساعدوك أو تسببوا في طلبك للرزق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي اشكروا من ساعدوكم لأجل الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فإن ذلك من شكر الله، كما قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

مَدَدُ الضلالة:

من كان منغمساً في الضلالة فلن ينفعه الدعاء، وإن تلفظ صاحب الضلال في صلاته بقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لا يجعله مستقيماً مهما كرر صلاته ودعاءه؛ لأن هذا يتنافى مع مشيئة الله الماضية، فقد أخبر بأنه يمد كل أناس من جنس ما يفعلون، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، ولنلاحظ كيف عبرَّ عن الخبر بأسلوب الطلب، كأنه دعاء على هذا الصنف من الناس، وذلك للتحذير من خطورة الضلالة، ولتبيين بأن من يريد من الله الهداية فإن عليه مغادرة مستنقع الضلالة وارتياد أبواب الهداية، وعندئذٍ فقط يتنزل

عليه مدد الله المذكور في آيات عديدة ومنها قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

***

أضْدادُ الصِّفات

أسماءُ الكمال والجمال:

تتشابه أسماء الله في كمالها وجمالها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، حيث وصف الأسماء وهي جمع بوصف مفرد هو: الحُسنى، والحُسنى تأنيث لـمصطلح الأحسن، والغاية من ذلك الوصف المفرد تأكيد تشابه الأسماء في الكمال والجمال، حتى لكأنها اسم واحد!

دِقّة الميزان:

من كمال عدل الله تعالى أن ميزانه يتصف بشدّة الحساسية وكمال الدقة، حتى أنه يزن النقير والفتيل، ويحسب الذّرّة والقطمير. قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ....﴾، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾.

إنها الرقابة اللصيقة والعدل الكامل، وإنه الجزاء الشامل ومراعاة الفروق مهما دقت في إطار المحسنين أنفسهم، وكذا بين مستويات المسيئين، وهو درس فكري للمسلمين في وجوب التخلق بالعدل المطلق، وحرمة التهاون بالصغائر والدقائق.

نسبيةُ العذاب:

من منتهى عدل الله أنه يجازي على السيئة بالسيئة ولا يضاعف العقاب كما يضاعف الثواب، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، لكن آية أخرى ذهبت إلى أنهم: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾. لكنه ليس كمضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها وصولاً إلى سبعمائة ضعف، وإنما لأن هذه الذنوب من جنس

الذنوب المتعدية، وبالتالي يضاعف العذاب فيها على قدر الذين تعدّى ضررها إليهم، كممارسة الإغواء؛ بدلالة الآيات التي قبلها، بينما تتحدث الآية الأولى عن الذنوب اللازمة التي ظلم الفرد بها نفسه، والله أعلم.

مالِكُ الأسباب:

لقد جعل الله الماء سبباً لنمو النباتات وخروج الثمرات، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

ويقرر الله أنه هو الفاعل وحده، وذلك عبر أمور ثلاثة:

- تأكيده أنه هو من أنزل الماء من السماء، وهي السحب وفق أساليب اللغة العربية الفصحى التي تنزل بها القرآن.

- استخدام الفعل الصريح في جملتي الإخراج والإنبات: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾.

- استثمار أحد الأساليب البيانية في تأكيد هذه الحقيقة، وهو الالتفات من الغيبة إلى التكلم المباشر.

ولا بد أن الله عز وجل قد فعل ذلك كله حتى يَقلع أوهام التعلق بالأسباب من جذورها، ويدفع العقول للتعلق بمالك الأسباب.

نسبيةُ الخَلْق:

قرّر القرآن وحدانية الخالق بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، غير أن من ذهبوا إلى أن الإنسان يخلق أفعاله استدلوا بآيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾!

ولما كانت النسبية غائبة عن أذهان هؤلاء فقد ساووا بين خلْق الله من العدم وبين صنيع هؤلاء الأفّاكين الجاري على الأسباب الجارية في دنيا الناس. ثم إن القرآن استخدم فعل الخَلق في الحديث عن صنيع الأفاكين ليرسم صورة شنيعة تنفر الناس مما يفعلون، وكأنه يقول بأنه لا يوجد أدنى سبب أو لبس يبرر لجوء هؤلاء إلى ذلك الإفك المفترى، فقد خلقوه من العدم تماماً، وهذا يدل على شدة افترائهم ومنتهى كذبهم !

***

أحكامٌ الموضوعية

الانتصار على الأديان لا على الأشخاص:

إن الإسلام لا يواجه الأشخاص وإنما يواجه الأفكار، ولا ينتصر على الناس وإنما على الأديان المحرفة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ *[الفتح : ٢٨]، ونلاحظ كيف ذكر في الآيتين أن الإظهار (على الدين كله) أي على سائر الأديان، ولم يذكر أشخاصا أو شعوبا أو قوميات أو أمما، بمعنى أنه جاء لصالح الناس كل الناس، وأن مواجهته للأفكار والتعاليم الباطلة إنما تصب في صالح الناس؛ لأن الدين الحق رحيم بهم وكفيل بإسعادهم في داري الدنيا والأخرى!

العدل بين الجنسين:

لأن الله خالق الناس ويعلم مدى التفاخر الذي سيذهب إليه أبناء آدم وبنات حواء أثناء تدافعهم في منعطفات الحياة، فقد أعطانا الله درساً بليغاً في العدل بين الجنسين، ولا يدركه إلا من تدبر النص بعقل حاضر الوعي.

قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ *[الشورى: ٤٩]، فوضح أن الجنسين من خلقه ومن وهْبه، وقدَّم الإناث في الذكر على الذكور، لكنه عرَّف الذكور ونكَّر الإناث، حتى لا يستأثر أحدهما بالتقديم والتعريف ويبوء الآخر بالتأخير والتنكير، وهذا يؤكد أن علاقة الجنسين لا تقوم على التفاضل بل ولا على التماثل

وإنما على التكامل، أي أنها لا تنبني على المساواة بل على العدل الذي يراعي أدق التفاصيل، ولا سيما أنهما خلقا من نفس واحدة، فكيف يكون لشطر فضل على شطر؟!

الموعظة لا الواعظ:

في سياق تحريم الله للربا ورد قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ...﴾.

ويبدو أن المقصود: فمن جاءه واعظ من ربه، بدليل أنه قال: «فمن» وهي للعاقل، وأنه قال: «جاءه»، ولم يقل: جاءته ! ولكن: لماذا أحَلّ النص القرآني الموعظة مكان الواعظ؟

يبدو أن الله يلفت الأنظار إلى أن الاستفادة من الموعظة تكون على قدر تحلي شخص الواعظ بالموضوعية، التي تركز النظر على القول دون القائل، ولذلك قال: «فانتهى» إشارة إلى النجاح في تحقيق المراد بسبب التزام الواعظ بقيمة الموضوعية، والله أعلم.

توسيع دائرة العقوبة:

ما أعجب الذين ينقلون العقوبات من دائرة الخصوص إلى دوائر العموم، فكلما وصلتهم إساءة من شخص عمموا ردّ الفعل ضد جميع الأفراد الذين ينتمون إلى دائرة ذلك الشخص، سواء كانت قومية أو وطنية أو قبلية أو حزبية أو مناطقية، مع أن الذنب أو الخطأ خاص لا عام، والقرآن يقرر ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ولعلم الله سبحانه بمن خلق، وأن أغلبهم سينسون هذه الحقيقة ويغفلون عنها في حمأة الغضب والانفعال، فقد كرر هذه الجملة بذات الحروف في خمسة مواضع مختلفة من آيات القرآن العظيم.

رفض التعميم:

يرفض الإسلام التعميم ويأبى التسوية بين المتقابلين، ولذلك ورد لفظ «كثير» سبع عشرة مرة، و«كثيراً» ستا وأربعين مرة، و«أكثر» ثلاثا وثلاثين مرة، و «أكثركم» مرتين، و «أكثرهم» خمسة وأربعين مرة، أي ما مجموعه مائة وثلاثة وأربعون مرة، ومع ذلك نجد مسلمين كثرا يندفعون نحو التعميم بجموح غريب وكأنهم لا يقرؤون القرآن؛ وذلك أمر طبيعي ممن يهجرون القرآن بالكلية لكنه أمر شديد الغرابة ممن يتلون القرآن بصورة مستمرة وربما يحفظونه عن ظهر قلب، لكن الحفظ من غير تدبر يضيف نسخة جديدة من القرآن ولا يضيف شخصية قرآنية، وكلما بحثنا عن جذور داء أو آفة وجدنا انعدام التدبر يقف في المقدمة !

***

مُدْخلاتُ القلوب

الأعينُ بريدُ القلوب:

بين الأعين والقلوب علاقة جدُّ متينة، بحيث يمكن القول بأن الأعين بريدُ القلوب، وكل ما يصل إلى القلب لا بد أن يكون له أثر، سواء كان إيجابياً أو سلبياً، وذلك حسب المنظر المشاهَد.

وبسبب هذه العلاقة المتينة فقد أقام القرآن الأعين مقام القلوب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾، والغطاء إنما يصيب القلوب كما تصيب الغشاوةُ الأبصار، وكأن الأبصار عندما غشيت عميت البصائر!

بابا العقل والقلب:

إن أشرف عضوين في جسم الإنسان هما العقل والقلب، ويبدو أن لكل واحد منهما باباً يتم الولوج إليه من خلاله، بحيث أن باب العقل هو السمع، وباب القلب هو البصر.

وهذا ما تومىء إليه الآيتان اللتان تقولان: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣]، فقد جعل نتيجة الصمم جنون العقل، وجعل نتيجة عدم النظر عمى البصيرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وهذا يعني أن المحافظة على جوهر العقل والقلب تتطلب حراسة قوية وصارمة في بوابتيهما، بحيث يتم انتقاء الصور والأصوات التي يُسمح لها بالنفاذ إلى الداخل بعناية بالغة؛ لأنها ستسهم في صياغة ما يعتمل في الدواخل

من أفكار ومشاعر بطريقة أشبه بالجبرية، وذلك عن طريق العقل الباطن، ومن هنا فإننا نجد على سبيل المثال في البلدان المتقدمة صرامة شديدة في منع من لم يبلغوا سن البلوغ من رؤية مشاهد العنف والمشاهد الخادشة للحياء ومواقف النزاع بين الوالدين، رغم أن ثقافة تلك المجتمعات تقوم على الحرية المطلقة ولا ترى مشكلة في ذلك من حيث المبدأ!

الأسلحة الفاسدة:

يمكن للقلب أن يصبح (قاعدة) لإطلاق أسلحة التدمير والإهلاك، إن لم يتعهده صاحبه بالرعاية والتهذيب، من خلال تطهيره من الأكدار والشوائب وإمداده بالمُدخلات الضرورية المطلوبة.

ويبيّن القرآن الكريم أن هناك أسلحة فاسدة إن وضعت في قاعدة الإطلاق هذه؛ فستنفجر حتماً بأصحابها، وأهمها:

- *المكْر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.
- البغي، ال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.
- النَّكْث، قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

ومن الملاحظ أن الآيات الثلاث تقصر الضرر في الحالات الثلاث على صاحب السلاح الخفي؛ فإن مَكره بالأبرياء يوقعه في حبائل مكره، يوضح ذلك حرف النفي (لا) مع حرف الاستثناء (إلا) مما يفيد الحصر والقصر. وفي الآية الثانية أوضح أن البغي يرتد إلى صدر صاحبه وحده، من خلال استخدام (إنما) الذي يفيد الحصر والقصر أيضاً. وفي الآية الثالثة تأكيد واضح على أن النكث لا يتضرر منه إلا صاحبه وحده، من خلال استخدام (إنما) الذي يفيد الحصر والقصر كذلك.

استحالة الهداية:

إن الإعراض عن آيات الله ونسيان ما قدمت الأيادي من أوزار؛ يصنع معادلة الذنوب التي تستحيل إلى أَكِنَّة تمنع القلوب من الفقه، وإلى وَقْر تمنع الآذان من السماع، ومن ثم فإن هؤلاء أبعد ما يكونون عن الهداية مهما طال بهم الزمان.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. فإن من كان هذا حالهم يستحيل عليهم أن يهتدوا، لأن الهداية تمر عبر منفذي القلب والسمع، ومن أعرضوا عن آيات الله بإرادتهم وصنعوا بذنوبهم أقفالاً على قلوبهم وأسماعهم، أنّى لهم أن يسمعوا صوت الهداية؟!

إبصار:

كلما غفلت الأحداق عن رؤية الحقائق أصابها الضعف والكلال، وكلما كفّت الأبصار عن الإبصار انطفأت البصائر وعجزت عن رؤية الحقائق كما هي في ذاتها، ولهذا أوجب الإسلام النظر في سائر المخلوقات والكائنات المُنبثّة في أرجاء هذا الكون الواسع، وجعل هذا الأمر فريضة يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، ولقّن نبيه محمدا أن يوضح هذه القضية للناس بلغته الفصيحة البينة، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ..﴾.

***

حقائقُ الحُقوق

تَعدِّي الصالحات:

إن الناظر في خارطة الأعمال التي يطلق عليها القرآن وصف الصالحات، سيجد أنها تشمل سائر نواحي الحياة، سواء ما يرتبط بعمران الأرض واستثمار طاقات الكون، أو باحترام الكائنات وخدمة حقوق الإنسان.

ومن ثم يمكن القول بأن أكثر الصالحات هي من جنس الأعمال المتعدية التي تستمر أجورها في الهطول ما استمر نفعها بالانْصباب على الناس.

ولا بد أن هذه الصالحات هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي غير منقطع، حيث يستمر بالانسكاب إلى أن تقوم الساعة، سواء ساعة هذه الأعمال أو الساعة العامة التي تسمى بالقيامة.

بين الصرامة والتسامح:

تترتب على عقد الإيمان حقوق ثلاثة تشكل مضمون العبادة بمعناها العريض والشامل، وهي: حق الإنسان على نفسه، وحق الله عليه، وحق العباد على العابد لله.

وإذا فرّط الإنسان في حق نفسه، سواء باجتناب الأوامر أو بغشيان النواهي، فإن الله يمكن أن يتجاوز عن هذا الصنف من المعاصي، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ولاحظوا جملة: ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وربما كان هذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، أي على ظلمهم لأنفسهم؛

لأن الله لا يتسامح بظلم الناس، وقد أبان النبي ﷺ أن الشهيد الذي تسقط ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر في أول قطرة من دمه، لا تسقط حقوق العباد، من خلال إشارته إلى عدم مغفرة الله لأبسط حق من هذه الحقوق وهي الدَّين!

أما إذا فرّط المرء في حق الله، فإن كان سوى الشرك فإن الله يمكن أن يصفح ويتجاوز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وبالنسبة لحقوق الناس فإنها مبنية على المُشاححة والصرامة، ومن ثم لا تسقط إلا بتوبة صادقة، حتى لو مات شهيداً كما جاء في أحاديث المصطفى ﷺ، ولذلك كان أهم شروط التوبة في حقوق الناس هو إعادة الحقوق لأصحابها أو استسماحهم.

التشدُّد في حقوق الناس:

ذهب علماء الأصول إلى أن (حقوق الله مبنية على المُسامحة، وحقوق الناس مبنية على المُشاحَحة)، فلقد تشدد الإسلام في حقوق الناس بصورة منقطعة النظير، ووصل الحال إلى توعّد الله بالويل لمن يقتطع حقاً من حقوق الناس ولو كان شيئا يسيراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، أي الذين يبخسون الناس في الكيل والوزن ولو كان شيئاً طفيفاً حقيراً!

بيوتُ الله وبيوت الناس:

ذُكرت لفظة بيوت الله مفردة ومجموعة في ١٦ موضعاً من القرآن الكريم، بينما ذُكرت بيوت الناس في ٤٤ موضعا، أي حوالي ثلاثة أضعاف مرات ذكر بيوت الله، وهذا دليل من أدلة شمولية هذا الدين، وأنه دين جاء في الأصل من أجل الناس، وأن إقامة حقوق الناس أوجب، والاعتداء عليها أحرم من حقوق الله!

مَعارِجُ التّمْكين

فرسانُ الخير:

تأمّلوا ملياً قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، وستدركون أن الآية تفترض أنكم فرسان للخير، وأن مضمار السباق هو الأرض، كأنه يقول: تسابقوا على عمارة الأرض بأصناف العبادات التي تحقق خلافة الله في الأرض، وحتى يتعطف الله ويعيدالإنسان إلى الجنة مجدداً، تسابقوا على تكثيف التذكّر وتقوية العزائم، حتى لا تقعوا في ما وقع فيه أبوكم آدم من نسيان وضعف العزيمة أديا إلى مقارفة الشجرة المحرمة!

نسبيةُ التمكين:

لا ينحصر التمكين في السيطرة على الحكم والتحكم بمقاليد الناس، فدائرته أوسع من ذلك، فإن الله مكّن جميع الناس في الأرض، بتهيئتها لحياتهم، وتسخير كل ما فيها من طاقات وآلاء لتفعيل معاشهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وأول خطوات غمط هذه النعم والآلاء هو عدم التعرف عليها وعدم البحث الدائب عنها، فإن ذلك يورث كفران النعم.

الصلاح الكامل:

إن دائرة الصلاح عريضة جداً، حيث تتسع لما بين العبد وربه من إيمان، ولما بين العبد وأخيه الإنسان من إحسان العمل والتعامل، وهي الدائرة المعنية بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهؤلاء هم الذين يرثون الأرض ويرثون الجنة !

أما من امتلك الصالحات بدون إيمان فهذا مؤهل لوراثة الأرض في حالة غياب الصالحين الأكملين، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، ولأن الصلاح نسبي هنا كما في دائرة الإيمان، فكلما كان الكائن أو الكيان أقرب إلى استثمار السنن وأقوى في التسلح بالأسباب، وكلما كان أقدر على عمارة الأرض وصناعة الحياة؛ كان أقرب إلى الصلاح وأجدر بالوراثة !

تعاكُس:

إن الغوص في باطن العلوم وفق المنهج الإسلامي يمنح أصحابها الأهلية لاستثمار إمكانات الأرض، ويُمكِّنهم من معرفة حقيقة الدنيا، ومن ثم فإنهم يبقونها في أيديهم ولا يسمحون لها بالدخول إلى بواطنهم.

أما الذين تقف علومهم عند ظاهر الدنيا فإنهم يسمحون لها بالدخول إلى أعماقهم وبواطنهم، ويصبح هؤلاء ممن قال الله فيهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

***

نفائس العلم

العلمُ مِرْقاةُ النَّفاذ:

العلم هو مرقاة النفاذ إلى البَعيدات، ووسيلة الاكتشاف للمجهولات، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، وليس من سلطان في عالم الشهادة سوى العلم، فهو الذي يختزل المسافات ويردم الفجوات ويصنع الخوارق العجيبة في شتى ميادين الحياة، كما نرى في زماننا هذا.

العلمُ تفضيلٌ:

إن من يعطيه الله العلم يُفضِّله على كثير من عباده الذين لم يُعطهم ما أعطاه، نستنبط هذا المعنى الدقيق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وهذه الإشارة مفهومة من الجمع بين أَنِيَّة العلم وبين التفضيل في هذا النص القصير.

بصيرةُ العلم:

يُثبت القرآن دوماً أن العلم ضياء مبين وأن الجهل عمىً حالك السواد، لكنه في هذه الآية يقرر ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

وهذه المقابلة التشبيهية لا يفقهها إلا أصحاب العقول المتفتحة التي لم تُغلقها أوهام الخرافات ولم تُعمها أهواء التعصب، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ولنلاحظ كيف استخدم حرف القَصْر والحَصْر: إنما، فمن أضاعوا قواهم العقلية في التقليد وتتبّع الخرافات لا يمكن أن يفهموا أمثال القرآن أو يتعظوا بها.

العلم وسيلة العمل:

العلم وسيلة شديدة النفاسة، لكنه ليس غاية في حد ذاتها، وما لم يتم تفعيل العلم من أجل الترقّي في عمل الصالحات فليس في هذا العلم خير، أو لم يقل الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾؟، والسعي هو العمل الدائب الذي يجتمع له العلم والإخلاص.

يقول حجة الإسلام الغزالي: «ولو قرأتَ العلم مائة سنة، وجمعتَ ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل ..». *اللهم علِّمْنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا.

***

قطوفُ التدبر

وعيُ الأوامر:

القرآن كتاب الأوامر الربانية لمختلف الناس في كل زمان ومكان، ولوحدة هذه الأوامر وكأنها شيء واحد، فقد أطلق الله مصطلح (أمر) وهو يشير إلى القرآن، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فكيف سيطبق أوامر الله من لم يمتلئ عقله بالوعي بها ولم يزخر قلبه باليقين بها؟!

الاستشفاء:

من يتناول الدواء بيده أو يراه بعينه دون أن يتناوله وينفذ إلى داخله، هل يكفيه ذلك للشفاء من سقامه والخلاص من آلامه؟!

ولا شك أن القرآن شفاء للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وبدون التدبر فلن يتم الاستشفاء بآي القرآن، وهو التدبر الذي يتوافر له حضورُ اللُّب وخشوع القلب.

ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾، مقدماً المستفيد على الفائدة، وكأنه يقول لن يستفيد من ترياق القرآن إلا المؤمنون به فقط، الذين يلتزمون بتوجيهات التدبر المبثوثة في سُوَره، باحثين في ثناياه عن أدوية القلوب وأكاسير الأرواح؛ ولهذا قدَّم المؤمنين قبل الهدى والشفاء لأنه بدون الإيمان فإن التدبر لن يفيد في شيء!

تشعيرُ القرآن:

إن الذين لا يتدبرون القرآن لا يتمكنون من تذكر معانيه ولا الاَدَّكار بمواعظه، ولا ينفعلون بأوامره، ولا تنطلق أفعالهم من مقاصده، وتصبح قراءة هؤلاء للقرآن كقراءة قصائد الشعر!

وإشارة إلى هذا المعنى قال الله عن رسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، والذكر هنا هو ما ينغرس في القلب والعقل من أثر وما يعتمل في داخل الإنسان من أثر يدفعه إلى التذكر.

وفي المقابل فقد وصف الله الشعراء بالانفصام بين الدعاوى والسلوكيات، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؟!. وهنا نعلم مدى جناية من يقرؤون القرآن بطريقة هذّ الشعر، وليصبح حينئذ مجرد أماني!

الاعتصامُ سبيل الهداية:

يتحقق الاهتداء إلى الصراط المستقيم على سبيل اليقين، عندما يعتصم المرء بحبل الله المتين وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ولنلاحظ كيف جعل القرآنُ الهداية مشروطة، واستخدم حرف التحقيق: (فقد)، مع توظيف الفعل الماضي لإبراز مدى تحقق الهداية وصيرورتها فعلاً ماضياً، مع أن فعل الشرط في مطلع الجملة فعل مضارع!

ومن المؤكد أنه لن يعتصم بحبل الله إلا من تمسّك به، وأول خطوات التمسك وأولاها هي التدبر!

***

بَيادِرُ الخير

الكرم العاطفي:

لا يدعو الإسلام إلى الاقتصاد في الإنفاق في كل الأحوال، فمن فتح الله عليهم أبواب الرزق فإن الله يحب أن يرى أثر نعمتهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، والتحديث هنا يكون بلسان الحال ولكن من غير إسراف، ويحب الله أكثر أن يرى أيدي المقتدرين تمتد بالعطاء إلى المحتاجين وتطول بالسخاء المساكين، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، وبهذا فإن النسبية هي التي تتسيد في العطاء وليس التعليمات الحرفية.

وينطبق ذلك حتى على العطاء المعنوي، فمن منحهم الله عواطف أقوى وأحاسيس أشد؛ فإن عطفهم على المساكين ينبغي أن يكون أوثق، وينبغي لمشاعرهم نحوهم أن تكون أرَقّ؛ لأن الضعفاء يحتاجون إلى دفء القلوب كما يحتاجون إلى دفئ الجيوب!

الإيمانان:

من يتأمل آيات القرآن الكريم سيجد أن الإيمان اثنان: إيمان نظري وهو التصديق اليقيني عبر الجوانح، وإيمان عملي وهو إلزام سائر الجوارح والأعضاء الخارجية بأن تنتظم في سلك العبودية لله عبر تنظيم كافة مجالات الحياة بالإصلاح، من خلال ما يسمى بشُعَب الإيمان.

وقد جمع الله الإيمانين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فإن مخاطبتهم بالمؤمنين في

مطلع الآية يشتمل على الإيمان النظري بعد أن صدّقوا به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدﷺ نبياً ورسولاً، ثم إنه أمرهم بالتقوى وترك ما بقي من مسائل الربا إن كان لإيمانهم ظلال من الحقيقة في الواقع العملي، كما تُبيّن نهاية الآية التي تحث على تفعيل الإيمان النظري وتحويله إلى سلوك في مختلف ميادين الحياة، ومن ذلك ترك ما بقي من الربا.

وجوب فعل الخير:

إن فعل الخير فرض عين على كل مسلم؛ لأن كل شُعبة من شُعب الإيمان تُمثل رافداً يَصبّ في بحيرة الخير العامة، لكن الدعوة إلى الخير *فرض كفاية*، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، فمواصلة كل مسلم لفعل الخير يحتاج إلى جهد الدعاة الذين يُعلِّمون الجاهل ويهدون الحائر، يُذكِّرون النّاسي ويوقظون الغافل، يُعينون الضعيف ويشجعون المتردد، يُقوّمون المعوج وينصحون المخطئ.

ارتقاء:

لا يمكن الارتقاء إلى قمم الفلاح ما لم يعْتلِ المرء معارج الخيرات، قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.وذُكرت كلمة الخير على إطلاقها لتشمل كل ما يجلب المصالح للعباد ويدرأ المفاسد عنهم، وذلك في ما يتعلق بالمعاش والمعاد في آن واحد، فلا فصل في الرؤية الإسلامية بين الدنيا والآخرة.

***

أفْلاكُ الآيات

تَشابُهٌ لا تَفاوت:

تتشابه آيات الكتاب المسطور وآيات الكتاب المنظور، من حيث أنها كلها مِرآة صادقة لصاحب الكمال والجلال، فقد وصف الله الكتاب المسطور فقال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، أي أن سُوَره وآياته في ذات السُّمو المعنوي والسُّموق البنيوي، لا تفاوت في معانيها ولا في مبانيها.

وعن آيات الكتاب المنظور قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ !

إن إدامة التدبر في آيات القرآن يوضح تكامل مبانيها ومعانيها في ذات الوقت، بعكس كلام البشر الذي تظهر نتوءاته وتباياناته إن تم تسليط مجهر الفحص على نصوصه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، وإن مداومة التفكر في آيات الكون؛ توضح انعدام التفاوت وسفور الكمال والجمال بأبهى الصُّوَر، حيث تَسْبح في أفلاك الخالق وتُسَبِّح في مهرجان المَلكوت الذي لا منتهى لروعته ولا حدّ لإدهاشه ولا نفاد لعجائبه.

غفلةُ الأنعام:

إن من لا يستخدمون عقولهم في فقه آيات الأنفس والآفاق، ومن لا يستثمرون أعينهم في رؤية المِنَن والآلاء، ومن لا يُعملون آذانهم في سماع أصوات الحقائق، هؤلاء كما وصفهم ربهم بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، إنهم أضل من الأنعام وأشد غفلة من الدواب، ومن ثم فإنهم يصبحون فرائس سهلة لذئاب الشياطين وثعالب البشر.

ولاحِظوا كيف كرَّر ضمير الفصل (أولئك) مرتين وهو اسم إشارة للبعيد، كأنه يقول بأنهم تَوغّلوا في الضلال وبالغوا في الغفلة، وذلك بدون استخدام الواو لالتصاق الغفلة بطبائع الحيوانات، كأنها جزء أصيل منها!

الهداية التامة:

تكون الهداية تامة إذا اجتمع للمسلم رُشد العقل وصفاء القلب، وإلى هذا المعنى أوْمَأَت الآية التي تقول: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، إذ أن الولاية متصلة بالقلب والإرشاد مختص بالعقل، ومن ثم فإن كمال الهداية لا يتحقق إلا إذا شفَّ القلب ورشد العقل.

***

قوانينُ التّمكين

التمكينُ الداخلي:

لا بد أن يبدأ التمكين من الداخل، ويتحقق ببناء المجتمع المتراص لبناتُه بإسمنت المعاملة الطيبة والأخلاق الحسنة، ولذلك ركزت سورة النور، سواء قبل آية التمكين أو بعدها، على ذكر عدد من الأحكام والأخلاق الضامنة لإيجاد الأسرة الطاهرة والمجتمع المتراص، كأنه يقول إن هذا هو الطريق لتحقيق هذا التمكين، فهو يأتي من الداخل، وليس من الخارج.

وفي سورة الطلاق وردت ثلاث آيات بهذا المعنى ﴿(١٠ - ٨)﴾ وسط سورة متكاملة عن الطلاق وموضوعات نسوية خالصة، حتى أن بعض المفسرين سموها سورة النساء الصغرى، وكأنه أراد أن يقول إنه لا تمكين من دون تحقيق الإنجاز في الإصلاح الأسري وتمتين البناء الاجتماعي.

الأرض مكتوبة للأصلح:

وفقاً لما يعنيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فإن قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ليست منحة أبدية وفق ما يسميها اليهود بأرض الميعاد ولكن وفق قانون الصلاح ففي زمن ما كان اليهود أصلح من الفلسطينين، فكتب الله لهم تلك الأرض، وعندما عادت كُرة الصلاح إلى أرض العرب استعادوها مرة أخرى وبصورة مستديمة استمرت أكثر من ١٣ قرنا، وستعود من جديد إلى أحضان الذين يجمعون مؤهلات الصلاح في ذواتهم ومجتمعاتهم في هذه الأثناء.

وبطريقة أخرى يمكن القول بأن إمكانات الصلاح لما كانت كلها ثاوية في الإسلام بعد تحريف التوراة؛ فإن فلسطين صارت للمسلمين إلى الأبد، إلا عندما يَحيدون عن شروط الاستخلاف ومواصفات الصلاح، كما في عصرنا هذا فإنها تُنتزع منهم، لكنها فترات عابرة ولا تنفي ملكية فلسطين لأهلها، وهذا ما ينطق به القرآن والسنة، ويؤكده التأريخ الطويل والمنطق السوي، وروي في هذا السياق بأن الوزير اليهودي الأسبق موشي دايان دخل في حوار مع شاب فلسطيني توعّده بالنصر على اليهود، فقال له: لستم أهلاً لذلك ولسنا أهلاً لذلك في هذه الأثناء!

ومن ثم فلن تتحرر فلسطين إلا عندما يتأهّل المسلمون للتمكين؛ بامتلاك مقوّمات الصلاح وشروط الوراثة.

بلاغُ الصلاح لعمارة الحياة:

أصدر الله بلاغاً بالغ الأهمية، ضمّنه سُنّة من سُنن التمكين وهي سُنّة الوراثة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، أي أن العبادة الحقة والكاملة هي التي تُعمر بها الحياة، فيستحق أصحابها وراثة الأرض والتمكين فيها، لأنهم الأصلح لعمارتها، نتيجة امتلاكهم لقيم الحرية والعدل والمساواة، وتسلحهم بالعلم والعمل والجهاد.

فضلُ المدافعة على البشر:

بيّن الله أن سُنّة المدافعة إنما هي من أفضاله العظمى على البشر، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو

فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥١]، حيث ختم الآية بفاصلة تشير إلى هذا الفضل الرباني العميم على العالمين.

ومن ذلك بقاء الكفر مع الإيمان، وكذلك تعدد الكيانات داخل المجتمع الإسلامي نفسه، حيث تدخل ضمن هذا التفضل، رغم أنها تبدو لأول وهلة كنقمة، لكنها في حقيقة الأمر نعمة جزيلة، إذ لولاها لفسدت الأرض وتأسَّنت الحياة.

فقهُ السنن:

علّل الله ضعف فاعلية الكفار أمام المؤمنين بالقول: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وأول مراتب الضعف هنا هي غياب فقه السنن، مما يحول دون استثمار ما يعلي من فاعلية الفرد ويزيد من المجتمع.

***

موازينُ الجزاء

العفو:

يشجع الله عباده على التسامح مع خلقه، حيث يجازي بالعفو على العفو ويكافئ بالصفح على الصفح، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩]، ولكن شتان بين عفو وعفو، فقد يعفو الله عن خطيئة كبيرة لواحد من عبيده لأنه عفا عن خطأ صغير وقع فيه واحد من بني الإنسان.

عمائلُ الحواس:

إن الصّمم عن سماع الحق، والعمى عن رؤيته، والخرس عن النطق به، صفاتٌ تُعرّض صاحبها للوقوع في هذه العاهات بطريقة حسية يوم الحشر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، إنه الميزان الذي لا يهضم ضعيفا أو فقيرا ولا يحابي قويا أو غنيا، وإنه الجزاء العادل الذي ينبعث من جنس العمل، حتى يشجع الناس على التسابق في الإحسان.

جوهرة:

إن الذين تركوا هدى الله فإن الله يتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ فقد اختاروا طريقهم وحددوا مصيرهم بأنفسهم.

مُشاكلة:

يستخدم القرآن ما يسمى بالمشاكلة اللغوية، وهي في الحقيقة إناء لتحقيق عدل الله في الواقع، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩] غير أن الاتفاق في اللفظ لا يعني الاتفاق في المعنى، فكيد الله ومكره وإبرامه وأمثالها، أفعال تليق بجلال الله وكماله، والمقصود من استخدام هذه الأفعال إشعار الناس ببشاعة الجرائم التي يرتكبها هؤلاء، وتحذير هؤلاء المنحرفين من عواقب ما يقترفون من شنائع.

خواتيمُ البدايات:

لا يوجد في الإسلام محاباة، لا في السنن الدنيوية ولا في الجزاء الأخروي، وينطبق ذلك حتى على فضل الله فهو لا يخرق هذا القانون، رغم أنه عطاء إلهي بلا حدود، وعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

فإن من كرم الله أنه يُلحق الأولاد الصالحين بآبائهم الأصلح منهم في درجة الثواب، ما دام أصل الجزاء موجودا وهو: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وهو عطاء إضافي غير محدود لكنه متاح لمن تتوافر فيهم المؤهلات المذكورة مهما كانوا.

بين التراب والنار:

تقوم النار في القيامة مقام التراب في الدنيا، فمن الْتَصق بالتراب التصاق التثاقل والتخاذل عن القيام بما أوجب الله جذبته النار بكلاليبها، ومن استعصى على جاذبية التراب فقد نجح بفضل الله في التزحزح عن النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

مَراقي السُّموق

رفعُ التخصصات:

تحدّث الله عن دور التخصصات في ارتفاع الدرجات، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ..﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وعلى سبيل المثال فإن الطبيب يكون فوق المريض بدرجة مهما كان علمه في تخصصه المهني ومهما كانت مكانته الاقتصادية والاجتماعية، ثم يأتي الطبيب محتاجاً لغيره من أصحاب التخصصات ويكون دون من يحتاجه بدرجة في ذلك المجال كالإسكافي الذي يقوم بصيانة الأحذية وتنظيفها، وهكذا بالنسبة لكل التخصصات.

ومما يؤيد هذا التفسير:

- بداية الآية بالحديث عن خلافة الله في الأرض وهي وظيفة مركزية لا تقوم على الوجه الأمثل ما لم يختر المرء المكان الذي يناسب مواهبه وقدراته، إذ أن كل شخص مُيسّر لما خُلق له، ثم إن الأرض لا تُعمر إلا عبر أبواب التخصصات.

- قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فإن كل من أعطاه الله موهبة ينبغي أن يتقنها ويرتقي بنفسه عن طريق العمل من خلالها، ومن ثم يصير مبتلى بها وفيها.

- الفاصلة القرآنية التي انتهت بإثبات الوعيد والوعد لمن انحرف أو استقام، لأن هذه التخصصات مرتبطة بحقوق الإنسان، ولكن المغفرة وفتح باب التوبة جاءت من أجل أن لا يتمادى أصحاب المهن والتخصصات في انحرافاتهم أو تقصيرهم وقصورهم.

الصعود إلى الفاعلية عبر درجات التخصص:

إن إتقان التخصصات هو السُّلّم الذي يصعد عليه المرء إلى ذروة الفاعلية، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، ذلك أن التخصصات تعطي الإنسان درجات في الأجر بقدر درجات الاتقان في المهن والأعمال. وهي دعوة للترقي بالعلوم التخصصية واعتلاء صهوة الخبرات.

وتشير الآيات التي بعدها إلى دور إتقان التخصصات في الاستخلاف وتحديد لمن تكون (عاقبة الدار) [راجع الآيات: ١٣٣ -١٣٥].

مُزاوجة:

يزاوج القرآن مزاوجة دقيقة بين حقوق الله وحقوق الناس، وذلك في مشروعاته لتحقيق التمكين في الأرض: قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، فالإيمان هو عنوان حقوق الله ، وعمل الصالحات هو عنوان حقوق الإنسان .

ثم التفت القرآن إلى العمود الذي تقوم عليه حقوق الله وهو الصلاة، وإلى العمود الذي تنصب عليه حقوق الإنسان وهو الزكاة، فقال في الآية التي بعدها فوراً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

معادلة الإصلاح (ترشيد التدين):

لا يمكن أن يكون المرء مصلحاً إلا إذا جمع بين صلاح التصور النظري (العلم)، وبين صلاح الحركة السلوكية (العمل)، وكلاهما بحاجة إلى مفردات ومتطلبات كثيرة، ولكن لكل قسم عمود يقوم عليه مبناه، الأول هو تدبر القرآن والثاني إقامة الصلاة، وقد جمع الله الأمرين في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ومن هنا فإن ترشيد التدين الإسلامي في عصرنا، يحتاج إلى إصلاح مناهج التعامل مع القرآن حتى يصبح مشكاة هداية تامة في دروب الحياة، وإلى إصلاح طرائق الإقامة للصلاة حتى تصبح زادا حقيقيا يعين على الانسلاك في طريق الحق والمداومة على الاستقامة الشاملة في نواحية الحياة.

***

مَدارِجُ الجهاد

الجهاد الدعوي:

من المعلوم أن الجهاد أوسع بكثير من القتال، ولذلك اعتبر القرآن التعليم والدعوة جهاداً: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، وقد ورد هذا الأمر بالجهاد في سورة الفرقان وهي سورة مكية، والقتال إنما فُرض بعد إقامة الدولة في المدينة المنورة.

ثم إن الجُهْد الشاق والتضحية الغالية وصولاً إلى إهلاك النفس، لا تكون فقط في القتال، فقد تكون في الدعوة والجهاد الناعم، كما قال تعالى لنبيه محمد:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

- ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ..﴾ [الشعراء: ٣]، وباخع تعني مهلكاً نفسك.

ومثلما يقال في الطب إن «آخر الدواء الكَيّ»، فإن الدعوة وهي علاج لأمراض الناس تُعدّ جهادا، وآخر الجهاد القتال!

اقتران القتال بجهاد الحج:

ولأن القتال صورة من صور الجهاد، فقد جاءت آية الإذن بالقتال في سورة الحج حتى لا ينساها الغارقون في الشعائر، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]

ثم جاءت آية المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ..﴾ [الحج: ٤٠].

وأخيراً جاء تحديد الغايات الرئيسة من التمكين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] أي أقاموا حقوق الله(ورمز لها بالصلاة) وأدوا حقوق الناس(ورمز لها بالزكاة)، وأوجدوا الوسائل التي تضمن استمرار هذه الحقوق في الوصول إلى مستحقيها(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

لماذا تقدَّمت الأموال على الأنفس في القرآن؟

في الآيات التي اجتمع فيها الجهاد بالأموال والأنفس، تقدّمت الأنفس في آية واحدة، بينما تقدّم المال في ١٠ مواضع، فلماذا يا ترى؟!

يبدو أن هناك عدد من الأسرار وراء هذا الأمر:

- أن المقام يتضمن حديثا عن الجهاد وليس عن قتال، والجهاد أشمل من القتال وهو أحوج إلى الأموال أولاً.

- دعوة لامتلاك المال لأنه سلاح نفيس، مع افترض أن أكثر المسلمين يمتلكون المال.

- وحتى في الجهاد القتالي فإن الاستعداد يأخذ فترات أطول، ويحتاج إلى أموال أكثر، تصنيعاً لسلاح، وتدريباً للجنود، وتنظيماً للمتطوعين وتأهيلا للمقاتلين.

وقد تقدمَّت الأنفس في موضع واحد وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، ذلك أن المقام مقام شراء، ولا شك أن الأنفس أثمن من الأموال، ولذلك قدّمها النّص القرآني في هذه الآية.

***

وظائفُ الشَّعائر

بقرةُ العبادة:

البِرُّ هو الإيمان بسائر الأركان وعمل شتى الصالحات، وليس مجرد أداء الشعائر التعبدية، وينطبق ذلك على الصلاة والصيام والحج وسائر العبادات، وسنتبيّن هذا الأمر من خلال تدبر مقطع واحد من مقاطع سورة البقرة والتي اتسعت لكافة تعاليم هذا الدين، وربما كان هذا المعنى مقصوداً في تسمية سورة البقر بهذا الاسم، فالبقرة في اللغة تأتي بمعنى المُتَّسعة، والباقر هو المُتَّسع، ولهذا وصف محمد الباقر بهذا الوصف لأنه كان موسوعيا في العلوم متبحرا في المعارف.

وظيفة الصلاة:

أراد الله أن يُبيِّن لمن جعلوا الصلاة عملاً شكليا مفروضا بدون تحقيق مقاصدها وإبراز أسرارها، أن لا بِرّ يُرجى منها إن لم تُحقّق مقاصدها، فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾كناية عن الصلاة، وأكد أن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والكتب والملائكة والنبيين، وأنفق المال مع حبه له على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..إلى آخر الصفات التي تبني المجتمع المتماسك والمتعاضد: [البقرة: ١٧٧].

وظيفةُ الصيام:

وأكد على ذات المعنى ببيان وظيفة الصيام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وأدق معاني التقوى وأجمعها هو أن لا يجدك الله في قوائم الفحشاء والمنكر

والبغي، وأن لا يفقدك في مقامات العدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى، بمعنى أن الصيام زاد يعين المؤمن على الالتزام بالأوامر والانتهاء عن المنكر، أمام أوامر النفس السيئة ووساوس الشيطان وتضليل أصدقاء السوء والتأثيرات السلبية للقطيع الاجتماعي.

وظيفة الحج:

وفي ذات المقطع من سورة البقرة أوضح الله وظيفة الحج فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، حيث التزاوج الوثيق بين الزاد المادي والزاد المعنوي، والتعانق التام بين حقوق الله وحقوق الناس.

أبوابُ العبادات:

وأكّد مرة أخرى على هذه المعاني المقصودة من العبادة، من خلال الدعوة للدخول إلى منهج العبودية والعمارة من أبواب الشُعَب الإيمانية جمعاء، فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ٢٠٨]، والسِّلْم هو سائر أوامر الإسلام ونواهيه، مع التحذير من اتباع خطوات الشيطان، إذ أن كل خطوة تقود إلى كبيرة من الكبائر التي توعّد الله مقترفيها بالنار.

***

مقاصدُ العبادة

دورُ الكعبة في قيام الحضارة:

تَحدَّث الله عن المقصد الأساسي من إيجاد الكعبة، فقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، ولنتفحص الفعل جَعَلَ، الذي تتجلى فيه الأقدار الربانية والقدرة الإلهية الخالصة، مثلما أن هذه الأمة الخاتمة ثمرة لذلك الجَعْل الإلهي واللطف الرحماني، فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

واسم الإشارة كذلك في الآية يشير إلى تمركز الكعبة في قلب اليابسة من الكرة الأرضية، إذ لا تعود على أي مما سبق، فكأنه تعالى يقول: مثلما جعلناكم أمة الوسطية الجغرافية فأنتم أمة الوسطية الفكرية، حتى يساعدكم ذلك في القيام بمهمة البلاغ الرسالي إلى الناس وأداء مهمة الشهود الحضاري عليهم بيسر وسهولة.

والمُتمعِّن في مقاصد الحج والعمرة وما فيهما من منافع مادية ومعنوية للمسلمين، ثم انعكاس هذا الخير وتلك المنافع على البشر عموماً يدرك لماذا قال تعالى: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

والصلاة مثل الحَجّ في أن فيها إقامةً للمسلمين على ثغور حقوق الله وحقوق الناس، إذا (أقاموها) بشروطها وأركانها المادية والروحية؛ لأن الجزاء من جنس العمل!

مقاصد الحج والذبح:

في سورة الحج توجيه رباني حاسم بالالتفات إلى المقاصد، حيث الحرص على الذّل والانكسار بين يدي الله وإرضائه، ومراعاة حقوق الآخرين وحرماتهم،

قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، ومن ثم فإن الحاج إذا لم يَعُد من رحلة الحج والعمرة بزاد التقوى؛ فقد خاب وخسر، علامة عودته كيوم ولدته أمه هي أن تكون أحواله العبادية مع الله والتعاملية مع الناس بعد الحج أفضل مما كانت قبله!

صلاة الحرية:

أمر الله بالاستعانة على مصاعب العيش ومَرارات الحياة، وعلى تحديات الطبيعة ومؤامرات الأعداء بأمرين اثنين، وهما الصبر والصلاة، فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾، فلماذا وصف الصلاة بأنها كبيرة دون الصبر؟!

يبدو أن وراء ذلك سببين:

السبب الأول: أن الصلاة فريضة يومية تحتاج إلى مداومة عليها مهما كانت الظروف، ولذلك قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، أما الصبر فليس مطلوباً في كل حال، فشطر الحياة بحاجة إلى شكر.

السبب الثاني: أن الصبر في كثير من الأحيان يكون إجبارياً كما يُقال: «مُكرهٌ أخاك لا بطل»، والصلاة فيها اختيار الإقامة أو الأداء أو الترك، وهي بين العبد وخالقه، فإن تصبر على متطلباتها المادية والمعنوية وتداوم على ذلك باختيارك وحريتك، فهذا أكبر من الصبر، ولا يستطيعه إلا من عَمَر الخشوعُ قلوبهم، وملأ اليقين عقولهم بأنهم سيلاقون الله في الآخرة وسيجزيهم على ما قدّموا أحسن الثواب.

وهذا الفهم يدفعنا بالطبع إلى استحضار هذا البُعد، بحيث نصلي من أجل أن تَبْيَضّ وجوهُنا يوم نلاقي ربنا، وليس كعادة اجتماعية أو رياءً للصالحين، مما يَستحثّنا على تجويد الصلاة حتى تُحقّق مقاصدها الحياتية المنشودة.

مَسَارِجُ الذات

طائرُ الذات:

كانت العرب تستخدم الطائر للتشاؤم والتفاؤل، ومع مرور الأيام وبُعد المسلمين عن الإسلام كثرت الطيور التي يُنتجها المنهج الذّرائعي، وأصبح المسلمون يبحثون عن أسباب ما يحيق بهم خارج ذواتهم.

ولعلم الله بذلك فقد قرّر مسؤولية الذات بلهجة حاسمة وحازمة، فقال: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ..﴾ أي أن سعادته أو شقاوته مرتبطان بعمله الذي هو أشبه بالقلادة التي تحيط بالعنق، وهو من يضع هذه القلادة على رقبته أو ينزعها منها !

حراسةُ الذات:

مهما كانت وساوس أباليس الجن ودسائس شياطين الإنس، فلا يمكن أن تضر الإنسان ما لم توجد القابليه في شخصيته للانفعال بها والتفاعل معها، وربما كان هذا من مقصودات قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

ولذلك فإن تركيز المسلم ينبغي أن يَنْصَبّ على العناية بالذات، بسد ثغراتها وتغطية عوراتها، وتخليصها من شوائبها ونقاط ضعفها، والارتقاء بها في مجرات التزكي والبناء والتمتين !

غِلُّ التراب:

ما دام الإنسان مخلوقاً من التراب فإن طبائعه لن تغادره ذاته أبدا، لكن الإيمان يستطيع أن يحاصر هذه الطبائع ويمنعها من الظهور، ومن هذه الطبائع

الغِلّ، فإنّ تَحلّي المسلم بالإيمان لا يعني أنه صار خالياً من الغِلّ تماماً، بدلالة قوله تعالى عن المتقين الذين يدخلهم الله الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ..﴾، وهذا يتطلب من الإنسان أن يمارس رقابة صارمة على نفسه، إذ يمكن أن يتخبى الحقد في زوايا عميقة، ويمكن أن يتدثّر بأرْدِية طيبة كالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فؤوسُ الحسنات:

مهما كان علم المرء وتقواه فإن بشريته لا تَنْفكّ عنه، ومن ثم يمكن لسلائقه البشرية أن تخذله هنا أو هناك، فيجترح السيئات أو يقارف بعض الشرور والآثام، لكن الله أوضح أنه أعطى للمؤمن فؤوس الطاعات لكي يَجتثّ بها شجرة السيئات كلما اعْتلَت غصونُ معاصيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

***

آفاقُ الاتحاد

روافد الوحدة:

من يتأمل الآيات التي ورد فيها مصطلح أمة في القرآن، سيتيقّن من حضور النسبية بقوة في القرآن، حيث ورد مصطلح أمة لعدد من المعاني إن تدبرناها وجدنا أنها روافد تَصبّ في بحيرة وحدة المسلمين، والمعاني هي:

- الملّة: وهي التي تبني الأواصر الروحية للوحدة.

- الجماعة:وهي التي تقيم الأواصر المادية للوحدة.

- الرجل الجامع لخصال البر والخير، وهو نواة وحدة الأمة لأنه يألف ويؤلف ولا يفتأ يبني جسور التلاقي والتآخي، باحثاً عن جسور التلاقي والقواسم المشتركة، ومتسلحاً بفقة الإعذار للآخرين، وأبرز مثال لذلك هو إبراهيم عليه السلام.

- اتِّباعُ الأنبياء: وهو توحيدٌ للمَنْهل والمنهج.

- الحين والزمن: وهو الإناء الذي تتحقق فيه الوحدة، حيث أن الزمن جزء من مطلوبات التآلُف والاتحاد.

أوزار الحروب:

في الحروب تتشابه على كثير من الناس الطرق وتلتبس عليهم الأمور، حتى يختلط الحابل بالنابل ويصاب بعض العقلاء بالحيرة، وتُسجَّل الجرائم ضد مجهولين، وتتدخّل أطراف غير معلومة لتحيل بلد اندلاع الحرب إلى ساحة لتصفية الحسابات بين قوى خارجها!

ولذلك كله فقد نسب القرآن الأوزار التي تحدث في ظروف اقتتال الناس إلى الحروب، فقال: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، مع أن من صنع هذه الأوزار هم الناس أنفسهم !

سلسبيلُ الصالحين:

لكي تكون صالحاً لا يكفي أن تتجنب سبيل الفاسدين، بل لا بد أن ترتشف من سلسبيل الصالحين وتسير في سبيل المؤمنين حتى تصبح واحدا منهم، فلن تكون من الذين أنعم الله عليهم بمجرد الابتعاد عن المغضوب عليهم والضالين، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فالإيواء إلى حصون الصادقين هو الملاذ الآمن من الوقوع في مهب رياح النفاق العاتية ومن وضعف الإيمان الذي يوقع أصحابه في الغفلة والنسيان.

الاعتداء في الدعاء:

قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، فما هو الاعتداء في الدعاء ؟!

إنه تجاوز السُّنَن وخَرْق النواميس، وهو كل ما يؤدي إلى تقطيع الروابط وتمزيق الأواصر، بل هو كل ما يتضمن تجاوزاً للمعقول حتى في الصوت أثناء الدعاء، ولذلك قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ !

***

تماثُل الجَزاء

اقتطاعٌ وقَطْعٌ:

إن اليد التي اقتطعت مالاً حراماً تَخُصّ الأيدي التي تعبت في جمعه؛ يأمر الإسلام بقطعها من دون رأفة؛ وذلك نكالَ ما اقترفت من السّطْو على أموال الآخرين من غير وجه حق، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ..﴾، ويُشبه هذه الآية ما قاله مصطفى صادق الرافعي عن الزاني المُحْصَن، فإنه بزناه قد خرّب بيتاً؛ فاستحقّ أن يُرمى بحجارة البيت الذي هدمه!

تحجُّر القلوب:

إن القلوب التي تحجّرت في الدنيا وقَسَت، ولم تَرِقّ وتَخْشع أمام شلال القرآن؛ هي بالتأكيد من وقود جهنم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، والقلب هو لُبّ الإنسان، والإنسان مخلوق من الطين، فإذا أسرف في جحوده وكنوده أدّبه الله بالعنصر الذي جاء منه: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، وفي ذلك مزيد من المهانة والإيلام.

سجود:

من لم يسجد لله في الدنيا وهو قادرٌ مستطيع، فلن يسمح الله له بالسجود في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

افتداء:

من اكتسب المعاصي في الدنيا بسبب أولاده وزوجته؛ سيحاول في الآخرة الافتداء بهم من العذاب الذي يتسعّر استعداداً لإحراقه، ولكن دون جدوى، قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾، ويأتي الجواب ليقول: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، فقد كان يجمع المال من حلّه وحرامه من أجلهم.

نارُ الخبائث:

لأن الخبائث تنشر الحرائق في الدنيا فإن الله يحرقها في الآخرة: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ..﴾، وكما كان الخبيثون يُسعِّرون الناس بفتنهم وخبائثهم، فإن الله يُحرقهم بها في لظى الآخرة، إنه التماثل الجزائي والعدل الرباني.

خَسْف:

من يخسف بتعاليم الله ويضرب بها عَرْض الحائط غير آبه بها وغير مستمع للداعين إليها، فإن الله يخسف به الأرض غير آبه بصرخاته واستغاثاته، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ...﴾وقال عن قارون الذي خسف بتعاليم التوراة ورمى بها إلى الأرض، وخسف بالهرم الاجتماعي عن طريق الغش والربا والاحتكار: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وعقّب الله على هذه النهاية المُخزية بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ولنلاحظ جملة ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾، بمعنى أنهم لا يجعلون العلو *إرادةً* تمتلئ بها جوانحهم وغايةً تنشغل بها جوارحُهم، ومن ثم فقد يكونون عالين

وفق سنن الله وتعاليمه، مسخرين ذلك العلو لخدمة الخلْق وإرضاء الحق، فلا بأس بذلك بل هو مما يُتقرَّب به إلى الله زلفى، ونقصد بالعلو هنا الاعتزاز بالله مع تملك الأسباب المادية من مال وسلطة وجاه وعلم، فالعزة من صفات المؤمنين لأنها لصيقة بالذلة على المؤمنين وبخفض الجناح للمساكين ومد يد العون للمحتاجين.

***

أعباقُ العروبة

العروبةُ وضوحٌ:

إن العروبة في المنطق القرآني هي الوضوح والإبانة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ..﴾ أي واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، نتيجة ثراء اللغة العربية بالمفردات التي تستوعب أخفى المشاعر وتُعبر عن أدق التفاصيل بكلمات واضحة لا تحتمل اللبس.

وأشار القرآن إلى أن العربية لغة عالمية واضحة، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ..﴾.

وما دام القرآن كتاب هداية للعالم أجمع ولغته هي العربية؛ فإن هذا يعني أنها أكثر لغات العالم وضوحاً وإبانةً وقدرة على التعبير الدقيق عن هذا التنوع البشري الكثيف في الأعراق والألوان، في العقول والأفهام، في المشاعر والأذواق، في العوائد والأعراف.

التيسير قرين فهم العربية:

لما كانت العربية هي أفصح اللغات وأوضحها، فقد يَسَّر بها القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ .

إن سهولة فهم القرآن مبنية على فهم لغته العربية، والعروبة من معانيها الوضوح واليُسر، وإدراك يسر الإسلام رهين بإدراك العربية، ولذلك نجد أن الأعاجم أقرب إلى التشدد وكذلك العرب الذين لا يعرفون العربية بقواعدها وأساليبها!

العقل تشريفٌ وتكليف:

وهذا ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي شرفُكم وعزّتكم.

إذ أن التشريف الكامن في الذكر يستدعي التكليف وتحمل المسؤولية الكامنة في: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث أن إعمال العقل يرفع العرب إلى مستوى المسؤولية الملقاة على عواتقهم، ويزيد هذا الأمر أهمية أنه ورد في سورة الأنبياء.

وفي كل الأحوال لن يقوم بمهام الشهادة على الناس إلا من يعقلون، أما من عطلوا ألبابهم فإنهم يصيرون مضحكة الأمم كما نشاهد في عصرنا هذا.

هل ما زلنا عربا؟!

لما كان القرآن مكتوبا بلغة عربية فصيحة فلن يفهمه ويؤمن به إلا من يفهم العربية؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

ونتيجة القوة الذاتية لهذا القرآن فإن أغلب من يفهمونه ويؤمنون به، هم من يتقنون لغته، وفي ظل هذا الكفران العملي بالقرآن فإننا نتساءل: هل ما زلنا عرباً بالفعل؟!

***

محاريبُ العبادة

محراب الكون:

هناك ارتباط وثيق بين الدنيا والآخرة في الرؤية الكلية للإسلام، فحينما يقول الله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فإنما يدعو إلى عبادة عرضها السماوات والأرض وهي العبادة الشاملة في محراب الكون. ومثلها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، فإنه يدعوهم للعبادة في محراب الأرض، حيث تمتدّ بضعة وسبعون شعبة من شُعَب الإيمان التي ينبغي أن يتحقق فيها الإيمان!

محراب الأرض:

وهناك دعوة قرآنية أكثر صراحةً لعبادة الله في محراب الأرض وردت في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ إذ أن العبادة تتسع لكل ما يرتبط بعمارة الأرض من قيم ومقومات وأعمال، مما فيه سعادة الإنسان في المعاش وفوزه في المعاد.

وهي تُشبه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وبالمناسبة هل هي مصادفة أن تكون الآيتان بذات الرقم وهو ٥٦ الأولى في سورة العنكبوت والثانية في سورة الذاريات؟!

محراب الشمولية:

يتعرض المسلمون اليوم لمحن كثيرة تبدو لي أنها أعراض لانتقام الإسلام ممن لم يَلِجوا إلى تعاليمه كافة، وبسبب ميل كثير منهم إلى تبعيض الإسلام وجعْل

القرآن قراطيس يأخذون ما يتفق مع الأهواء والأعراف ويتركون ما دونها، وتأمّلوا معي جيداً الآيات الآتية:

- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾. فما جدوى التبيان لكل شيء إن كنا نطبق ما نريد من الأشياء ونترك ما دونها؟!

- ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.، وما الغاية من أن كتاب الله لم يترك شاردة ولا واردة في الحياة إلا وانتظمها ضمن قواعده وعناوينه القرآنية المعجزة؟!

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾. فهل نكون من الذين خاطبهم الله تكليفاً ووصفهم بالإيمان تكريما، إن كنا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؟!

- ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. أو لا نكون ممن عابهم الله إن كنا لا ندخل إلى الإيمان من أبواب متفرقة؟

- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وكيف تكون حياتنا كلها لله تعالى إذا كانت أجزاء من حياتنا مقصية عن توجيهات الشرع الحنيف وخاضعة للنزوات والأهواء التي حذّر منها الرحمن، أو للقوانين الوضعية التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

- ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]. أفلا نكون من المتقين لغير الله حينما نُحكِّم غير شرعه في السياسة او الاقتصاد أو الاجتماع؟

وبالطبع فإن ﴿وَاصِبًا﴾ الواردة في الآية السابقة تعني دائماً في كل حال. ومما يؤكد هذا المعنى الآيات التي وردت بعدها [النحل: ٥٣-٥٩].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾. وكأن الإنكار القلبي لبعض ما أنزل الله ينقل المسلم من صراط الأمة الواحدة إلى سبل الأحزاب المتفرقة.

- ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ..﴾؟!* ومن الواضح ان القرآن يطلق مصطلح الكفران على من يرد بعض تعاليم الإسلام في أي ناحية كانت؛ لأن المسلم ما سمي مسلما إلا لأنه يستسلم لتوجيه الله في كل ما أمر وما نهى، وفي كل ما أحب وكره.

- ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾. فإذا كان هذا التحذير الشديد للنبي ﷺ واعتباره من المشركين إن أقام وجهه لغير الدين في بعض النواحي، فكيف يكون حال المسلمين الذين يتعرضون لفتن جارفة في زماننا هذا؟

- ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾. ومن الواضح أن الدعوة صارمة لإقامة الدين كله والتحذير من الاختلاف فيه؛ لأن هذا الاختلاف يزرع في الأمة أسباب التفرق والتشيع والاحتراب.

*اللهم ردّنا إلى دينك الشامل مَرداً جميلاً.

***

أكمامُ الآيات

تِرْياقُ التدبّر:

إن تدبر القرآن هو طريق الخلاص من صَمَم الأسماع وعمى الأبصار؛ ذلك أن فيه شفاء للمؤمنين؛ إذ يمتلك ترياق القلوب وإكسير العقول؛ وهذا ما يشير إليه ترتيب الآيتين الآتيتين: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٣-٢٤]

وتدبر القرآن هو الحائط الصلب المانع من الوقوع في مهاوي إحباط الأعمال والارتداد عن طريق القوامة، نستنبط هذا المعنى من تدبر الآيات - ٢٤ ٣٨ من سورة محمد!

فالقرآن بتدبره وفق المنهج النبوي، ينقل أعمال المسلم كافة من الإبطال إلى التوطين، إذ أن الوصفة الضرورية لهذا التوطين موجودة في هذه الآيات لمن يتدبرها تحليلاً وفهماً وتنزيلاً.

تَنافُرُ التفاسير:

من يتمعّن في آيات القرآن سيجدها كاملة التضافر والتآزر، بينما سيرى أكثر التفاسير متنافرة ومتباينة إلى حد غير يسير، ويشير الله تعالى إلى ذلك فيقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾.

إن هذه الآية تؤكد أنه لا تعارض بين آيات الله القرآنية أبداً، بل تتعارض الرؤى البشرية ومنها الرؤى الواردة في بعض كتب التفسير؛ وذلك نتيجة ضعف التدبر وحضور الشخصانية .

تنزيل الكتاب على الواقع:

يبدو أن مصطلح الحكمة في القرآن من المصطلحات النسبية، لكن المعنى العام له كما يبدو لي هو تنزيل الكتاب على الواقع، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي أنزل عليكم الكتاب وأنزل فيه المنهج الذي يتكفل بتنزيله على الوقائع في كل زمان ومكان، ولو كانت السُّنّة هي الحكمة لقال يعظكم بهما.

وفي ذات السياق قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ والحكمة هنا هي العقل الذي يضع كل شيء في نصابه.

حفظ القرآن:

جاءت آية التعهد بحفظ القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، في وسط آيات سقوط الأمم عندما تحين ساعتها وتأتي آجالها [الحجر: ٤، ٥]، كأن الله يقول إن القرآن هو حافظ هذه الأمة من السقوط والاندثار، وأن حافظ القرآن هو الله، فلا خوف على القرآن، لكن الخوف من عدم التزام المسلمين به.

وبعدها جاء عدد كبير من آيات ما يسمى بالإعجاز العلمي، ويبدو أنها أكثر عدد ورد في مقطع واحد، وذلك في الآيات ١٤ إلى ٢٢ من سورة الحجر، وكأن الله يشير بذلك إلى أن حفظه للقرآن يقوم على سنن عقلية، يوقن معها العقل البشري أن القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾.

***

نَوائلُ العلم

براهينُ العلم:

من صور تعظيم البراهين في التعرف على الغيبيات والوصول إلى عالم ما وراء المادة، قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، فهو حَضٌّ على اتباع البراهين العلمية والأدلة العقلية، وإن خلت من الأهواء والتكلف فلن توصل إلا إلى الله، لأنه لا يوجد إله بحق في هذا الكون غيره تعالى.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، فإن اتباع سلطان العلم الحق يبعد الإنسان عن مسالك الظنون ويقيهم من مزالق الهوى، ويدفعهم نحْوَ النزول في ضفاف اليقين والولوج إلى مَلكوت الرحيم.

العلم شطر الإيمان:

العلم شطر الإيمان، وشطره الآخر هو الإخلاص، ولا إيمان بدون علم، وإلى هذا المعنى أشار القرآن، ولكن عن طريق الإثبات وليس النفي، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾، وضَعْ خطاً عريضاً أيها القارئ تحت كلمة: ﴿فَيَعْلَمُونَ ﴾ وتأملها ملياً لتمتلئ جوانحك بالمعنى الذي أريد وصوله إليك من هذه الوقفة التدبرية.

التعريف الإسلامي للعلم:

يقاس العلم في الإسلام بثماره المرتبطة بخشية الله، كما قال سفيان بن عيينة: «إنما العلم الخشية».

ومن الخشية العلم بيوم البعث والاستعداد له، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولو ركبوا صهوة العلم ما وقعوا في هاوية التكذيب!

العلم شرط الإيمان:

إن العلم جسر من الضروري اعتلاؤه للوصول إلى ضفاف الإيمان وشواطئ اليقين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ ذلك أنه لا يصل إلى درجة الإيمان في الأصل إلا صاحب علم، فكيف تحدث الخيانة من أناس ذوي علم؟!

***

ثوابتٌ ومُتغيّرات

تَعدُّد الصواب:

إن التعدد في الوسائل يغلب عليه أن يكون تعدداً في مساحة الصواب، وعلى سبيل المثال فإن الله تعالى عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ..﴾، لم ينص على الوسيلة التي يتم بواسطتها السعي إلى المساجد، فقد تكون عبر السير على القدمين أو ركوب سيارة خاصة أو حافلة عامة أو على دابة، وقد يتم الوصول إلى المسجد عبر هذه الطريق أو تلك، ومن ثم فإن كل وسيلة مشروعة للوصول إلى الغاية هي وسيلة صائبة، والمهم أن لا تكون الوسيلة مسروقة أو مغصوبة، وأن لا تُفوِّت الهدف، وكلما كانت الوسيلة أكثر نجاعةً في تحقيق الهدف صارت أصوب وأحسن!

قرآنية المقاصد لا الوسائط:

في القيم الكلية والمبادئ العامة اهتم القرآن بالمقاصد ولم ينص على الوسائل، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، حيث أمر بإقامة فريضة الشورى التي تضمن تلاقح الأفكار والوصول إلى أصوب الآراء والمواقف، لكنه لم يذكر كيفية المشاورة ولم يحدد أهل الشورى، ولم يشرح الموضوعات التي ينبغي أن تتم فيها الشورى.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، حيث أمر بتجسيد قيمتي العدل والإحسان في المجتمع المسلم، لكنه لم يحدد طرائق تحقيق العدل ولا مؤسساته ولا أنواعه وكذا بالنسبة للإحسان.

- ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾، حيث أوجب القيام بفعل الخيرات، لكنه لم يحدد أنواع الخير ولا كيفيات القيام بها ولم يوضح مستحقيها ولا أوقات القيام بها ولا مقاديرها.

ومن المؤكد أن الجمع بين الثوابت والمتغيرات خصيصة من خصائص الإسلام، بحكم أنه دين عالمي خالد، وذلك حتى يستوعب الاختلافات والتنوعات الناتجة عن تغير الزمن والمكان والناس، ولو نصَّ على الوسائل لصارت أغلالاً وآصاراً تمنع الناس من التفكير والتدبير بما يصلح شأنهم ويراعي ظروفهم وخصوصياتهم.

تبعية الوسائل للمقاصد:

تكتسب الوسائل والأساليب حكمها من المقاصد، فالوسائل محايدة ونسبية، والمقاصد من ورائها هي ما تجعلها حلالاً أو حراماً.

إن الوسائل مجرد أواني يمكن مَلْأها بالخير أو بالشر، كالمكر: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، ذلك أنه عملية عقلية يرتب صاحبها للإيقاع بالخصم، بعد ذلك هل يستحق الخصم هذا المكر أم لا، هذا هو الذي يحدد إن كان المكر حسناً أو سيئاً، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾!

الكمال والاجتهاد:

يتحجج معارضو التفكير والاجتهاد بأن الإسلام دين كامل ولا نقص فيه، ولا يعي هؤلاء أن الكمال في الدين إنما هو في الثوابت المعلومة من الدين بالضرورة والتي لا يُعفى مسلم من الجهل بها، ومنها المحرمات من المأكولات، فقد جاءت آية كمال الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ في سياق الحديث عن المُحرَّمات من المطعومات، ولذلك قال ﷺ: «ألا إن الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ».

نسبية الصلاة الوسطى:

في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ...﴾ صورة من صور النسبية، إذ لو كان المقصود دوماً صلاة العصر لقالها الله مباشرة، لكنه تعمد الإشارة للوصف، بحيث انطبق في عصر تنزل القرآن على صلاة العصر لأن الناس كانوا أكثر انشغالاً في وقتها، وبالتالي فإن كل صلاة يكون انشغال الناس عنها أكثر في أي زمان أو مكان هي صلاتهم الوسطى التي أكد عليها القرآن!

***

أفياءُ الاتحاد

الحِسُّ الجَمْعي:

لا يزال القرآن يزرع قيم الوعي الجمعي في جوانح أبنائه على كل حال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

فعلى الرغم من أن المقام مقام مقارنة ويحتاج إلى مماثلة في المبنى إلا أنه في الحديث عن الذين آمنوا جاء بصيغة الجمع مقابل مفردة المسيء، وكأنه بذلك يقول إن المؤمن الحق لا بد أن يستظل في كل حال تحت سقف الجماعة المؤمنة، لدرجة أنه تعالى في هذا المثل لم يقابل المسيء بالمؤمن.

عموم المصائب:

يتعامل الإسلام مع المسلمين على أنهم جسم واحد، كما شبّههم النبي ﷺ في حديثه المشهور، وهذا التضامن والتضافر يبرز في المزايا والرزايا على حدٍ سواء، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ..﴾، فالمصيبة تصيب الجميع لأنهم جسد واحد، وهذا دافع إضافي للتناهي عن المنكرات ومحاربة المظالم، وموجب لتجفيف منابع الآثام واجتثاث منابت الشرور.

أواني الهموم:

إن المؤمنين حقاً يجعلون من أنفسهم آنية تنضح بهموم الأمة ثم بهموم أنفسهم وأهاليهم، ذلك أنهم يرجون ما عند الله، ويعرفون أن الله خلقهم للابتلاء والعبادة وأن الدنيا لا ينبغي أن تكون أكبر همّهم ولا مبلغ علمهم ولا

غاية رغبتهم، أما غير المؤمنين فإن أنفسهم تتحول من وسيلة إلى غاية، كما قال تعالى عن بعض هؤلاء: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ..﴾.

الكيان الواحد:

يعتبر القرآن المسلمين أمة واحدة وخاصة في الضروريات التي يشركهم بها جميعا، فمن يعتدي على مال أو عرض أو دم أي شخص فهو ينتهك حرمة المجتمع المسلم كله وكأنه جسم واحد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، ولم يقل: لا تقتلوا بعضكم أو غيركم، ونستنبط من هذه الآية أن العقود القائمة على التراضي الحقيقي الكامل جائزة، وليس رضى الضرورة مثل عقود التأمين التعاوني.

وتشير الآية إلى أن الظلم مؤذن بخراب العمران وسقوط الدول، كما قال ابن خلدون، ويقول ابن تيمية: «إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة على الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة»!

***

نوائلُ القتال

بلْسمُ القلوب:

ما يزال أعداء الله يَرمون المؤمنين بسهام التُّهم والقَدْح، وما فتئوا يَطعنونهم برماح الغَدْر والأذية، حتى تنجرح قلوبهم قبل أبدانهم.

ولا بَلْسمَ لجروح القلوب أكثر نجاعةً من قتال هؤلاء المعتدين، فإنه العُدَّة التي تُحقِّق النصر، والترياق الذي يشفي القلوب، ولهذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

المقاتلة وسيلة من وسائل المدافعة:

ربط القرآن بين القتال دفاعا عن النفس وبين سنة المدافعة، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ...﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

وأكد القرآن على هذا الأمر بالإشارة بعدها إلى الوظيفة الدعوية للدولة الإسلامية، بمعنى أن القتال ضرورة لإزالة موانع تدفق الدعوة الإسلامية السلمية حتى يأخذها من يريد ويتركها من يشاء بملئ إرادتهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

طمأنة القلوب:

من طبائع البشر الخوف، ويبرز الخوف على الأنفس في مقدمة أنواع الخوف، ومهما ارتقى الإيمان بأصحابه فإنهم لن يغادروا بشريتهم المتصفة بالنقص والقصور، وعلى سبيل المثال فإن الصحابة الكرام هم أعظم جيل طلعت عليه

الشمس في كافة الصفات الإيمانية ومع ذلك فقد شعروا بالخوف من مقابلة الكافرين الذين كانوا يفوقونهم عددا وعدة، ففي غزوة بدر خرج ثلاثمائة من خيار الصحابة مع النبي ﷺ لمواجهة غطرسة قريش، وذكر الله حالة بعض هؤلاء الصحابة فقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، وكراهية القتال ثمرة طبيعية للخوف على الأنفس من الإزهاق. أما في أحُد فقد فرّ أكثر الصحابة من حول الرسول، وفي الخندق زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

وفي سياق معالجة سورة الأنفال لهذا الخوف، قامت ببث المؤكدات اللفظية والمعنوية في أكثر من خمسة وخمسين موضعاً. ومن ذلك التوكيد بحروف إن وأن واللام وقد، واستخدام أداة الحصر والقصر: إنّما واستخدام حرف النفي مع حرف الاستثناء كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

***

ذخائرُ الفُرقان

كمالُ القرآن:

إن القرآن كتاب متشابه في كمال المعاني وجمال المباني، ومن كماله أن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن الآيات التي تُبرز كمال القرآن لمن تدبرها قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾، فالقرآن هو كلام الله، واستخدم لفظ (كلمة) بالمفرد لا بالجمع رغم أن كلماته تزيد عن ٧٧ ألف، ليؤكد هذا التشابة في الكمال والجمال وانعدام التفاوت والنسبية، وكأنه كلمة واحدة !

ويتضح تمامه وكماله في كل نواحيه، ومن ذلك صدقه ودقته في ما أورد من أخبار، سواء تعلقت بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكذا في عدله المطلق الذي ينبثق من ثنايا أوامره ونواهيه التي تتضافر من أجل جلب السعادة للبشر ودرء الشقاء عنهم!

خزانة الكتب المقدسة:

عدّ الله القرآن خزانة الكتب المقدسة، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والمقصود بالذكر هنا هو القرآن، وليس السنة كما ذهب لذلك بعض العلماء، وهذه هي البراهين على صدق ما أقول:

- الذكر هو اسم من أسماء القرآن كما ورد في عدد من الآيات ذات الصلة بالوحي، ولا يوجد مبرر إلى صرف المعنى نحو السنة النبوية.

- تفرق أبعاد القرآن في سائر الكتب المقدسة السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكأنه يقول لأصحاب الدعوات السابقة بأنكم ستجدون كتبكم منصهرة في هذا الكتاب العظيم.

- الناس في الآية عموم البشر وليسوا المؤمنين مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وبذلك حقق القرآن هيمنته على سائر الكتب.

- ما نُزِّل إليهم: الكتب السابقة، ولأنها نزلت في أزمنة مختلفة قال تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ ..﴾.

- أنزلنا: أي القرآن لأنه في البدء نزل جملة واحدة مثل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ في ليلة مباركة، والإنزال للقرآن وليس للسنة لأنها لم تنزل مرة واحدة.

شمول الفرقان:

- فرقان القرآن بين الحق والباطل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

- فرقان الإيمان بين قبول الأعمال ورفضها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ ذلك أن الأعمال التي لم يتم بناؤها على هدى القرآن فتفتقد للعلم أو الإخلاص فإنها ترد على أصحابها وتستحيل إلى هباء منثور.

الآية الكبرى:

عندما طلب المشركون من محمد ﷺ آية باهرة ومعجزة خارقة تدل على نبوته، سجّل الله هذا الطلب فقال: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فقد أعطاهم الله ما هو أعظم وأرحم وأدوم وهو القرآن الكريم، فهو المعجزة العقلية المتجددة لكل الناس إلى قيام الساعة، بجانب أن الذين يكذبون بآيات الله الخارقة بعد قيام

التحدي يتعرضون للعذاب الذي يستأصل شأفتهم، ومن هنا فقد رحم الله هذه الأمة من هذا العذاب، وهذا ما تشير غليه جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

حصنُ القرآن:

إن القرآن الكريم مانع من نزول العذاب الاستئصالي الأليم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فقد طلبوا إنزال الملائكة بالعذاب فأنزل الله جبريل بالقرآن وهو رحمة للعالمين مثل الرسول الذي أنزل عليه.

***

جُسورُ المآب

سرُّ العمل:

العاقل الفطن هو من أدرك حقيقة الدنيا، فلم يعبدها ولم يهدمها وإنما اتخذ من لَبنات عمارتها جسراً يعبر عليه إلى أرض المآب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، أي اتخذ من العمل الصالح جسراً للمآب إلى الله، المآب الذي يمكنه من ارتياد أهوال المحشر بسلام، وعبور الصراط دون سقوط أو تزحزح.

التّمتُّع بالمباهج:

وعد الله الذين جمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات بالحياة الطيبة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوام الحياة الطيبة هو المال الحلال والرزق الكريم، فإنه الوسيلة الأساسية لامتلاك زينة الدنيا والاستمتاع بمباهج الحياة، ولهذا استنكر الله من يُحرِّم ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾؟!

علاماتُ المفاز:

إنما يصير من الفائزين من اجتمعت بين يديه بهجة الحدائق والبساتين، وحلاوة الأعناب والمآكل، ومتعة النساء الكواعب، ولذة العصائر والمشارب.

وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٤]، فقد جعل الله هذه الآلاء بدلاً عن كلمة

مفازاً، فكأنه يبين أهم علامات الفوز وثماره، ويشير إلى أن الاستمتاع بفراديس الآخرة ثمرة لفَرْدَسة الدنيا بالصالحات.

فوز الزحزحة:

من اتقوا ربهم حقاً وإن كانوا فقراء ضعفاء؛ فقد ضمنوا السعادة الدنيوية، وتجنبوا زلزلة الساعة، وأحرزوا فوز الزحزحة المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ومن معاني التقوى أن يجدك الله في ثغور إعمار الأرض وإسعاد الخلق، ولا يجدك في نواحي الإفساد وإهلاك الحرث والنسل.

***

الفهرس

مَقاليدُ التقاليد ١٧
تَسبُّبُ الأنبياء ٢١
مَجَاني الصلاة ٢٤
أشواكُ النفوس ٢٧
جَوارحُ الجَوانح ٣١
قَلائدُ الهداية ٣٤
غرائبُ الشاذّين ٣٧
مَصارعُ الظالمين ٣٩
مفاتيحُ التغيير ٤٢
خِلالُ الرِّجال ٤٥
قانونُ التدافُع ٤٨
مُراعاةُ الفُروق ٥١
نفَثاتُ اليائسين ٥٣
بَراهينُ الإيمان ٥٥
غَوائلُ الهَوَى ٥٨
مَحاسنُ الاستقامة ٦٠
عدالةُ الجزاء ٦٣
مَطايا الدعوة ٦٦
غَوائلُ البَاغين ٧٠

مُعادلاتُ الثبات والتغيُّر ٧٣
تَزاوُجُ الثُّنائيات ٧٦
فَوَاحشُ الشُّرور ٨٠
آفَاقٌ دعوية ٨٣
شَمَائلُ المُتَّقين ٨٦
الثّوابُ العادل ٨٩
العقابُ العادل ٩٢
خَلائقُ الكَمَال ٩٥
عَواقبُ الجُنوح ٩٧
أشواكُ الكفر ١٠٠
أجْنحةُ الحرّية ١٠٣
ارتيادُ المستقبل ١٠٦
آفاقُ العقول ١٠٩
رياحينُ الوحدة ١١١
مساكبُ التدبُّر ١١٣
مَدَارجُ التدبُّر ١١٦
آفاتُ اللا تدبُّر ١١٨
انتقامُ القرآن ١٢١
تضافرُ المَنهل والمَنهج ١٢٤
تلالُ الإيمان ١٢٧
عجائبُ السُّوَر ١٢٩
معارجُ الدعاء ١٣٣

مَنابتُ السُّجود..... ١٣٦
ظِلالُ الدُّعاء..... ١٣٩
مقاصدُ الصلاة..... ١٤٢
عناوين قرآنية..... ١٤٥
مَصاعدُ الاستعانة..... ١٤٨
طبائعُ الطّين..... ١٥١
مُنْزلَقاتُ الاستدراج..... ١٥٣
سنن الاصطفاء..... ١٥٥
مِنَحُ الرّحمن..... ١٥٨
أوثانُ الهَوَى..... ١٦٠
قواربُ الإرادة..... ١٦٣
طرائقُ التكامل..... ١٦٦
مفاتنُ الأسْباب..... ١٦٩
أنْدادُ الأسباب..... ١٧٢
ذَخائرُ الاختيار..... ١٧٥
غَمَراتُ الجَهالة!..... ١٧٧
مباهجُ المناهج..... ١٧٩
خلائقُ المشركين..... ١٨٢
مقاليدُ الكمال..... ١٨٥
مباهجُ الغرائز..... ١٨٨
أفْنانُ التفاصيل..... ١٩١
وَسَائطُ الأسباب..... ١٩٥

مدارجُ المَرْحليّة ١٩٨
أفعالُ الله ٢٠٠
أصْدافُ الصِّفات ٢٠٣
أكْمامُ الموضوعية ٢٠٦
مُدْخلاتُ القلوب ٢٠٩
حقائقُ الحُقوق ٢١٢
مَعارجُ التّمْكين ٢١٤
نفائسُ العلم ٢١٦
قطوفُ التدبر ٢١٨
بَيادِرُ الخير ٢٢٠
أفْلاكُ الآيات ٢٢٢
قوانينُ التّمكين ٢٢٤
موازينُ الجزاء ٢٢٧
مَراقي السُّموق ٢٢٩
مَدارجُ الجهاد ٢٣٢
وظائفُ الشَّعائر ٢٣٤
مقاصدُ العبادة ٢٣٦
مَسَارِجُ الذات ٢٣٨
آفاقُ الاتحاد ٢٤٠
تماثُل الجَزاء ٢٤٢
أعباقُ العروبة ٢٤٥
محاريبُ العبادة ٢٤٧

أحْكامُ الآيات ٢٥٠
نَوائلُ العلم ٢٥٢
ثوابتٌ ومُتغيّرات ٢٥٤
أفياءُ الاتحاد ٢٥٧
نوائلُ القتال ٢٥٩
ذخائرُ الفُرقان ٢٦١
جُسورُ المآب ٢٦٤

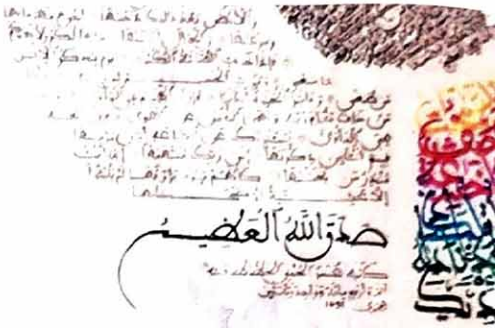

من يزرعون القرآن في عقولهم وقلوبهم يضمنون أن تنبتَ آياته فيها أشجار الخير، حتى تتحوّل مع طول المدى إلى بساتين غنّاء وحدائق فيحاء، لا تجد فيها إلاَّ أزهار الجمال وثمار الكمال.

ففي سياق تدبّر القرآن بطريقةٍ علميةٍ منهجيّة ستجد براهين كاملة على أن القرآن كلّه محاسن، فهو متشابهٌ في كمالِهِ وجماله، ومتناغمٌ في معناه ومبناه.

ولاكتشافِ ذلك كلّه لا بدَّ من إطلاقِ مدارك العقل التدبريّة وإذكاءِ ملكات القلب الخشوعيّة.

دار البشير
01012355714 - 01152806533
darelbasheerealla@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.com

9 789772 789665

تصميم الغلاف
+201005833852